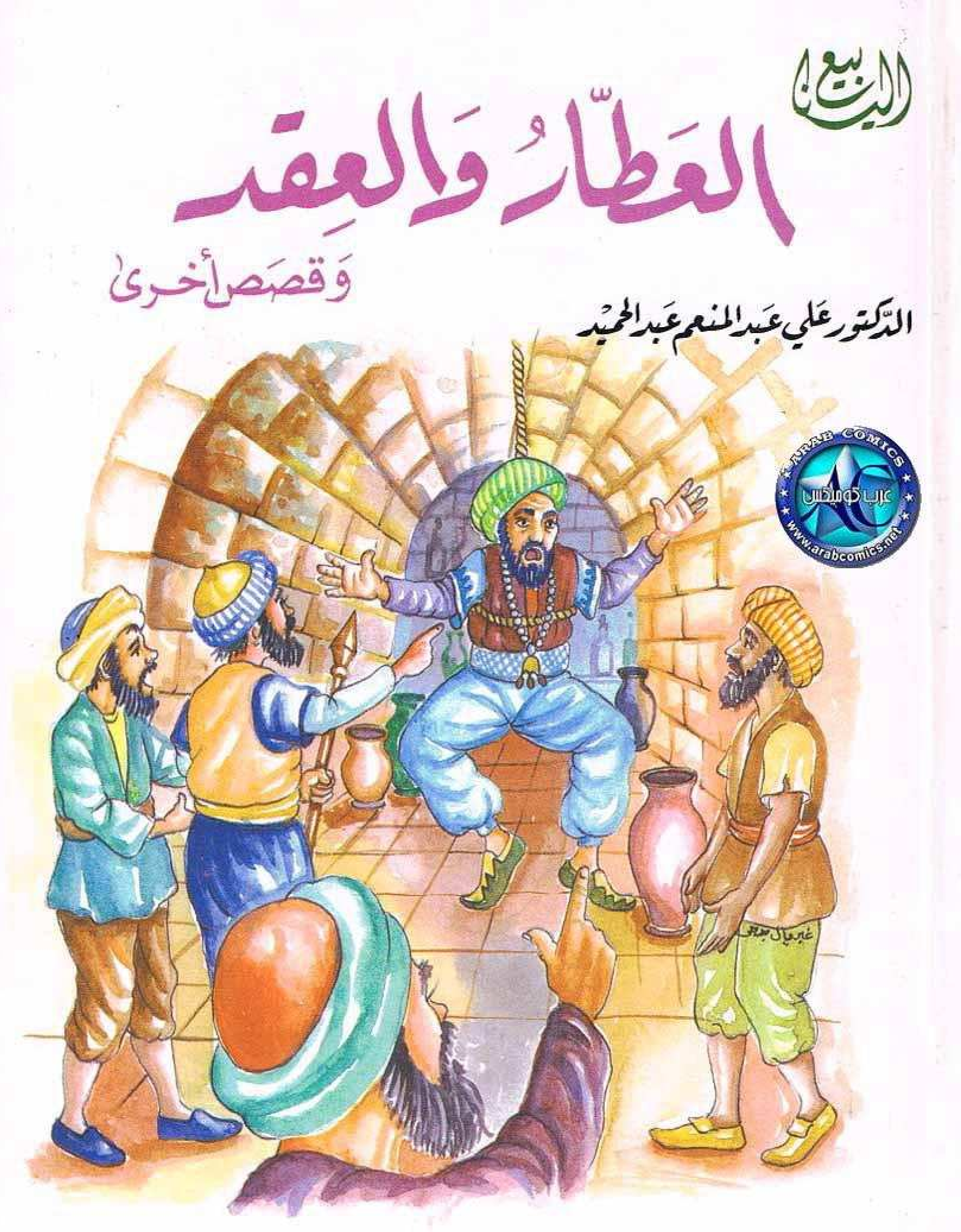


مكتبة لبنان ناشرون



العطّار و العِقد

وقصص أخرى

الدكتور علي عبد المنعم عبد الحميد



مكتبة لبنان ناشرون   الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان

إشراف : الدكتور علي عبد المنعم عبد الحميد

١٠أ ، شارع حسين واصف ، ميدان المساحة ، الدقي ، الجيزة - مصر

مكتبة لبنان ناشرون

ص.ب : ١١-٩٢٣٢

بيروت - لبنان

وكلاء وموزّعون في جميع أنحاء العالم

الطبعة الأولى ١٩٩٩

رقم الايداع ١٩٩٩/٩٥٨٥

الترقيم الدولي ISBN ٩٧٧ - ١٦ - ٠٤١٧ - ١

رسوم : هاني طلبة

طبع في دار نوبار للطباعة ، القاهرة

الحَمْدُ لِلَّهِ

كانَ الحَجّاجُ والِيًا عَلى الكوفَةِ ، وكانَتِ الكوفَةُ تَضيقُ بالوُلاةِ ، وتَثورُ عَلَيْهِمْ ، لا يَكادُ يَفْلِتُ واحِدٌ مِنْهُمْ مِنْ ثَوْرَتِها ، أوْ يَنْجو مِنْ غَضَبِها . فَلَمّا جاءَها الحَجّاجُ أَخَذَها بالشِّدَّةِ العَنيفَةِ ؛ وعامَلَ ناسَها بالقَسْوَةِ الشَّديدَةِ ، فَلَمْ يَرْفُقْ بِشَيْخٍ ولا امْرَأَةٍ ، ولَمْ يَلِنْ لِصَبِيٍّ ولا عَجوزٍ . فَفَرَّتِ الكوفَةُ مِنَ الحَجّاجِ ، واتَّقَدَتِ العَداوَةُ والبَغْضاءُ بَيْنَ أَهْلِها وبَيْنَهُ ؛ وبَدا أَنْ لا سَبيلَ إلى المَحَبَّةِ والوِئامِ .

وفي نَهارٍ اشْتَدَّ حَرُّهُ ، والْتَهَبَ قَيْظُهُ - اتَّخَذَ الحَجّاجُ مَجْلِسَهُ في ظِلٍّ ظَليلٍ ، ومَعَهُ « قُتَيْبَةُ بْنُ مُسْلِم » ، وجاءَتْهُ الشُّرْطَةُ بِبَعْضِ مَنْ خَرَجوا عَلَيْهِ وناصَبوهُ العَداءَ ، فَأَمَرَ الحَجّاجُ بِقَتْلِهِمْ جَميعًا ؛ جَزاءَ خُروجِهِمْ عَنْ طاعَتِهِ ، والجَهْرِ بِعَداوَتِهِ ، وتَأْليبِ النّاسِ عَلَيْهِ .

وحينَ آذَنَتِ الشَّمْسُ بِالْمَغيبِ ، وتَهَيَّأَ النّاسُ لِصَلاةِ الْمَغْرِبِ ، كانَ قَدْ بَقِيَ مِنَ الثّائِرينَ الخارِجينَ رَجُلٌ واحِدٌ ، لَمْ يُقْتَلْ بَعْدُ ، فَقالَ الحَجّاجُ لِقُتَيْبَةَ : « اذْهَبْ بِهَذا الرَّجُلِ مَعَكَ ، وائْتِني بِهِ إذا كانَ الصَّباحُ . »

خَرَجَ « قُتَيْبَةُ » يَصْحَبُهُ الرَّجُلُ ، فَلَمّا كانا بِبَعْضِ الطَّريقِ قالَ الرَّجُلُ : « و اللهِ ، يا قُتَيْبَةُ ، ما خَرَجْتُ عَنِ الجَماعَةِ ، ولا شَقَقْتُ عَصا الطّاعَةِ ، ولا اسْتَحْلَلْتُ قِتالَ الْمُسْلِمينَ ، ولَكِنّي ابْتُليتُ بِذَلِكَ كُلِّهِ . و لي عِنْدَكَ رَجاءٌ ، إنْ شِئْتَ أَجَبْتَهُ ، وإنْ شِئْتَ رَفَضْتَهُ . »

قالَ قُتَيْبَةُ : « هاتِ ما عِنْدَكَ . »

قالَ الرَّجُلُ : « إنّي قَدِ ابْتُليتُ بِما تَرى ، وعِنْدي وَدائِعُ وأَماناتٌ لِأُناسٍ كَثيرينَ ، فَإِنْ شِئْتَ أَنْ تُخَلِّيَ سَبيلي ، وتَأْذَنَ لي ، حَتّى آتِيَ أَهْلي ، فَأَرُدَّ عَلى النّاسِ وَدائِعَهُمْ ، وأُعْطِيَهُمْ أَماناتِهِمْ ، فَيَسْتَريحَ كُلُّ ذي حَقٍّ إلى حَقِّهِ ، ثُمَّ أَكْتُبَ وَصِيَّتي . ولَكَ عَلَيَّ عَهْدُ اللهِ

ومِيثاقَهُ أنْ أَعودَ إلَيْكَ ، وأَضَعَ يَدي في يَدِكَ . »

عَجِبَ « قُتَيْبَةُ » مِنْ طَلَبِ الرَّجُلِ ورَغْبَتِهِ ، وتَضاحَكَ لأَمْرِهِ . ومَضى بِهِما الطَّريقُ ، ولَكِنَّ الرَّجُلَ يُعيدُ القَوْلَ ، ويَعْرِضُ عَلى « قُتَيْبَةَ » مِنْ جَديدٍ أَمْرَهُ ، ويَتَوَسَّلُ إلَيْهِ أنْ يُحَقِّقَ لَهُ طِلْبَتَهُ ، وأنْ يُبَلِّغَهُ إرْبَتَهُ ، ويَقولُ لَهُ :

« يا قُتَيْبَةُ ، لَكَ عَلَيَّ عَهْدُ اللهِ ومِيثاقُهُ أنْ أَعودَ . لا تَجْعَلْني أَموتُ خائِنًا لِلأَمانَةِ . »

ولَمْ يَتَمالَكْ قُتَيْبَةُ نَفْسَهُ ، فَانْطَلَقَتْ مِنْ بَيْنِ شَفَتَيْهِ كَلِمَةُ « اذْهَبْ ! »

وما إنِ انْطَلَقَتْ ، وتَوارى شَخْصُ الرَّجُلِ - حَتّى أُسْقِطَ في يَدِ قُتَيْبَةَ ، ورَكِبَهُ الهَمُّ مِنْ كُلِّ جانِبٍ ، واسْتَوْلى الجَزَعُ عَلى كُلِّ أَقْطارِ نَفْسِهِ : ماذا صَنَعَ ؟ كَيْفَ سَيَلْقَى الحَجّاجَ ؟

وذَهَبَ إلى أَهْلِهِ مَهْمومًا مَغْمومًا ، يَجُرُّ رِجْلَيْهِ جَرًّا ؛ فَقَدْ أَثْقَلَهُ الخَوْفُ ، وأَمَضَّهُ الأَلَمُ . وأَنْكَرَتْ زَوْجُهُ حالَهُ ؛

فَقَدْ عَهِدَتْهُ باسِمًا مَهْما يَهْتَمّ ، مُتَمالِكًا مَهْما يَغْتَمّ ، ولَكِنْ ما شَأْنُهُ ؟ أَقْبَلَتْ عَلَيْهِ ، وبَسَطَتْ لَهُ يَدًا حانِيَةً ، ونَظَرَتْ إلَيْهِ بِعَيْنٍ راضِيَةٍ ، تُحاوِلُ أنْ تَمْسَحَ عَنْهُ آلامَهُ ، وتُخَفِّفَ مَتاعِبَهُ ، وقالَتْ لَهُ :

« ماذا وَراءَكَ ، يا قُتَيْبَةُ ؟ لا تَحْمِلْ هَكَذا الغَمَّ ، ولا تُكَدِّرْ حَياتَكَ ولا تَيْأَسْ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ . »

قالَ لَها : « لَقَدِ اجْتَرَأْتُ عَلى الحَجّاجِ ، وخالَفْتُ أَمْرَهُ ، وخَرَجْتُ عَنْ طَوْعِهِ ، وما أَرى إلا أَنَّهُ قاتِلي . »
وحَكى لَها حِكايَتَهُ !

قالَتْ وهِيَ تُداري رَجْفَتَها بِبَسْمَةٍ عَريضَةٍ :

« يَرْحَمُكَ اللهُ ويَرْعاكَ . لَقَدْ صَنَعْتَ ما صَنَعْتَ بِعَهْدِ اللهِ ومِيثاقِهِ ، ولَنْ يُضَيِّعَكَ اللهُ ، فَلا تَقْنَطْ مِنْ رَحْمَتِهِ ، وتَرَقَّبْ عَفْوَهُ وبَرَكَتَهُ . »

وباتَ « قُتَيْبَةُ » أَطْوَلَ لَيْلَةٍ عَرَفَها في حَياتِهِ ، لَمْ يَغْمُضْ لَهُ جَفْنٌ ، ولَمْ يَهْدَأْ لَهُ بالٌ ، ولَمْ تَسْتَرِحْ لَهُ نَفْسٌ ،

وإنَّما ظَلَّ طَوالَ اللَّيلِ ساهِرًا ، يُراقِبُ النُّجومَ ، ويُحاوِلُ إحْصاءَها ، وعَقْلُهُ دائِمُ التَّفْكيرِ حَتّى كادَ يُصيبُهُ الخَبالُ مِنْ كَثْرَةِ العَنَتِ ؛ وشِدَّةِ الإرْهاقِ . ما يَكادُ يُداعِبُهُ الأَمَلُ في عَوْدَةِ الرَّجُلِ و وَفائِهِ بِعَهْدِهِ ، حَتّى يَرُدَّهُ اليَأْسُ خائِبًا مَحْسورًا !

وزَوْجُهُ إلى جانِبِهِ ، تَعِدُهُ وتُمَنّيهِ ، وتُخَفِّفُ عَنْهُ وتُواسيه ، وقَلْبُها واجِفٌ خائِفٌ ، يَكادُ صَوْتُ دَقّاتِهِ يَكْشِفُ عَنْ خَوْفِها ، ويَكادُ وَجيبُهُ يُعْلِنُ عَنْ فَزَعِها .

ظَلا كَذَلِكَ حَتّى أَخَذَتْ تَباشيرُ الضِّياءِ تَطْرُدُ فُلولَ الظَّلامِ ، ورَفَعَ الْمُؤَذِّنُ أَذانَ الفَجْرِ ، فَنَهَضَ « قُتَيْبَةُ » وزَوْجُهُ لِلصَّلاةِ ، ولَكِنْ ما هَذا ؟ إنَّ « قُتَيْبَةَ » يَسْمَعُ طَرْقًا عَلى بابِهِ ، فَمَنِ الطّارِقُ ؟ حَبَسَ « قُتَيْبَةُ » وزَوْجُهُ أَنْفاسَهُما ، وهَرَبَ الدَّمُ مِنْ عُروقِهِما ، وغاضَتِ الحَياةُ مِنْ وَجْهَيْهِما . لَعَلَّهُ رَسولُ الحَجّاجِ يَطْلُبُ الرَّجُلَ .

عَلا الطَّرْقُ وازْدادَ ، وكُلَّما ازْدادَ الطَّرْقُ ازدادَ الخَوْفُ ،

ونَما وتَشَعَّبَ في صَدْرِ « قُتَيْبَةَ » وزَوْجِهِ . ولَمّا لَمْ يُفْتَحِ البابُ صاحَ الطّارِقُ : « افْتَحْ يا قُتَيْبَةُ ، فَأَنا صاحِبُكَ !»

أَسْرَعَتِ الدِّماءُ تَجْري في عُروقِ « قُتَيْبَةَ » و زَوْجِهِ ؛ ودَبَّتِ الحَياةُ في جَسَدَيْهِما ، وسَرْعانَ ما اسْتَطاعَتْ قَدَما « قُتَيْبَةَ » أَنْ تَحْمِلاهُ ، فَوَثَبَ نَحْوَ البابِ وَثْبًا ، وفَتَحَ البابَ عَلى مِصْراعَيْهِ ، وقالَ لِلرَّجُلِ : « أَرَجَعْتَ ؟ »

ويَلْحَظُ الرَّجُلُ ما اعْتَرى « قُتَيْبَةَ » وزَوْجَهُ ، ويَشْعُرُ بما كانَ يُعانِيانِ ، فَيَنْظُرُ إِلَيْهِما نَظْرَةً كُلُّها مَوَدَّةٌ ورَحْمَةٌ وحَنانٌ ، ويَقولُ :

« سُبْحانَ اللهِ ! جَعَلْتُ لَكَ عَهْدَ اللهِ عَلَيَّ وميثاقَهُ . أ فَأَخونُهُ وأَخونُكَ ولا أَرْجِعُ إِلَيْكَ ؟ هَيّا انْطَلِقْ بنا إلى صاحِبِكَ ، فَلَعَلَّهُ يَتَعَجَّلُ حُضورَكَ . »

كَبُرَ الرَّجُلُ في عَيْنَيْ « قُتَيْبَةَ » ، وعَظُمَتْ مَكانَتُهُ ، ونَما الإعْجابُ بِهِ في نَفْسِهِ ، وأَزْهَرَ وأَثْمَرَ ، فَقالَ لَهُ : «واللهِ ، لَوِ اسْتَطَعْتُ نَفْعَكَ لأَفْعَلَنَّ . »

أَدّى الثّلاثَةُ صَلاةَ الصُّبْحِ ، و وَقَفوا بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهِمْ خاشِعينَ ، يَطْلُبونَ رَحْمَتَهُ ، ويَرْجونَ عَفْوَهُ . فَلَمّا قُضِيَتِ الصَّلاةُ تَناوَلوا طَعامَ الفَطورِ ، ثُمَّ انْطَلَقَ « قُتَيْبَةُ » وصاحِبُهُ إلى مَجْلِسِ الحَجّاجِ . وهُناكَ أجْلَسَ « قُتَيْبَةُ » صاحِبَهُ عَلى البابِ ، ودَخَلَ مُنْفَرِدًا .

قالَ لَهُ الحَجّاجُ حينَ رَآهُ : « يا قُتَيْبَةُ ، أيْنَ أسيرُكَ ؟ »

فَأجابَهُ « قُتَيْبَةُ » : « أصْلَحَ اللهُ الأميرَ ، وسَدَّدَ خُطاهُ . إنَّهُ بالبابِ ، يَنْتَظِرُ أمْرَكَ . بَيْدَ أنَّ لي مَعَهُ قِصَّةً عَجيبَةً ، إنْ أذِنَ الأميرُ قَصَصْتُها عَلَيْهِ . »

قالَ الحَجّاجُ : « وما قِصَّتُكَ مَعَهُ ؟ قُلْ ، يا قُتَيْبَةُ . »

فَقَصَّ عَلَيْهِ « قُتَيْبَةُ » القِصَّةَ ، ثُمَّ أذِنَ الحَجّاجُ بِدُخولِ الرَّجُلِ ، فَلَمّا مَثَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وأماراتُ السَّكينَةِ بادِيَةٌ عَلَيْهِ ، قالَ الحَجّاجُ :

« أتُحِبُّ ، يا قُتَيْبَةُ ، أنْ أهَبَ لَكَ حَياةَ هَذا الرَّجُلِ ؟ »

أجابَ قُتَيْبَةُ : « نَعَمْ أيُّها الأميرُ ، عَظَّمَ اللهُ شَأنَكَ ،

وبارَكَ فيكَ . »

وتَعَلَّقَتِ الأَبْصارُ بِشَفَتَيِ الحَجّاجِ ، والحَجّاجُ صامِتٌ يُديرُ ناظِرَيْهِ في الحاضِرينَ ، ثُمَّ قالَ : « هُوَ لَكَ ، يا قُتَيْبَةُ ، فَانْصَرِفْ بِهِ مَعَكَ . »

وخَرَجَ « قُتَيْبَةُ » ومَعَهُ صاحِبُهُ ، وقَدْ أُفْعِمَتْ نَفْسُ « قُتَيْبَةَ » بالسُّرورِ ، وفاضَتْ بالبَهْجَةِ والحُبورِ ، فَقَدْ أجْرى اللهُ الخَيْرَ عَلى يَدَيْهِ ، و مَدَّ في حَياةِ الرَّجُلِ الوَفِيِّ ، الَّذي لَمْ يُفَكِّرْ في نَقْضِ عَهْدِهِ ، ولَمْ تُحَدِّثْهُ نَفْسُهُ بالغَدْرِ ، فَكانَ صِدْقُهُ سَبيلاً إلى نَجاتِهِ .

فَرِحَ « قُتَيْبَةُ » فَرَحًا بالِغًا بِنَجاةِ صاحِبِهِ ، فَلَمّا خَلا لَهُما الطَّريقُ قالَ لَهُ : « خُذْ أيَّ طَريقٍ شِئْتَ . »

فَرَفَعَ الرَّجُلُ طَرْفَهُ إلى السَّماءِ ، ودَمَعَتْ عَيْناهُ ، وهُوَ يَقولُ بِصَوْتٍ مَسْموعٍ : « لَكَ الحَمْدُ ، يا رَبَّ العالَمينَ . »

ثُمَّ انْطَلَقَ الرَّجُلُ في طَريقِهِ لا يَلْوي عَلى شَيْءٍ . لَمْ يُوَجِّهْ إلى « قُتَيْبَةَ » كَلِمَةَ شُكْرٍ أوْ عِتابٍ . لَمْ يَقُلْ لَهُ :

أحْسَنْتَ أَوْ أَسَأْتَ .

وَقَفَ « قُتَيْبَةُ » ساهِمًا في مَكانِهِ لا يَرِيمُ ، يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ ، ويَنْظُرُ في أَثَرِ الرَّجُلِ ، ويَقولُ في نَفْسِهِ لِنَفْسِهِ : «مَجْنونٌ – و اللهِ – هَذا الرَّجُلُ !»

سَلَكَ « قُتَيْبَةُ » طَريقَهُ إلى بَيْتِهِ ، وهُوَ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ بِأَمْرِ هَذا الرَّجُلِ الْمَجْنونِ ، الَّذي لَمْ يُكَلِّفْ نَفْسَهُ عَناءَ كَلِمَةِ شُكْرٍ أَوِ اسْتِحْسانٍ لِمَنْ جَعَلَهُ اللهُ سَبَبَ نَجاتِهِ .

وَلَكِنَّهُ كانَ في أَعْماقِ نَفْسِهِ مَسْرورًا ، وفي طَيّاتِ ضَميرِهِ مَحْبورًا تَكادُ البَهْجَةُ تَطْفِرُ مِنْ عَيْنَيْهِ ، ويُخَيَّلُ لَهُ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ يَرْقُصُ طَرَبًا حَوالَيْهِ .

دَخَلَ بَيْتَهُ ، فَلَمّا رَأَتْهُ زَوْجُهُ سَرى الفَرَحُ في جَنَباتِها ؛ فَقَدْ رَأَتِ البِشْرَ يَعْلو وَجْهَهُ ، ولَمْ تَنْتَظِرْ حَتّى يُخْبِرَها الخَبَرَ ، بَلْ أَسْرَعَتْ تَقولُ لَهُ :

« لَقَدْ أَجْرى اللهُ عَلى يَدَيْكَ خَيْرًا . هَذا ما تَقولُهُ قَسَماتُ وَجْهِكَ ، وتَطْفَحُ بِهِ أَساريرُكَ ، هَيّا حَدِّثْني .

ماذا حَدَثَ ؟»

ولَمْ تُمْهِلْهُ لِيَلْتَقِطَ أَنْفاسَهُ ، ويَسْتَعيدَ الأَحْداثَ . وأَحَسَّ هُوَ لَهْفَتَها ، وشَعَرَ بِفَرْحَتِها ، ومُشارَكَتِها لَهُ مَشاعِرَهُ وأَحاسيسَهُ ؛ فَأَسْرَعَ يُلَبّي رَغْبَتَها ، ويُشْبِعُ إِلى الْمَعْرِفَةِ حاجَتَها .

ولَمّا فَرَغَ مِنْ حَديثِهِ ، وأَظْهَرَ لَها حَيْرَتَهُ مِنْ أَمْرِ الرَّجُلِ ، قالَتْ لَهُ : « الحَمْدُ للهِ الَّذي جَعَلَكَ سَبَبَ نَجاتِهِ . . ادْعُ اللهَ لَهُ !»

انْقَضَتْ عَلى ذَلِكَ أَيّامٌ ثَلاثَةٌ ، وإِذا طارِقٌ يَطْرُقُ بابَ « قُتَيْبَةَ » ، ويَفْتَحُ « قُتَيْبَةُ » البابَ ، فَإِذا صاحِبُهُ أَمامَهُ ، وإِذا هُوَ يَقولُ لَهُ :

« جَزاكَ اللهُ خَيْرًا ، يا قُتَيْبَةُ ، وشَكَرَ لَكَ كَريمَ مُعامَلَتِكَ لي ، وإِحْسانَكَ مَعي . إِنَّني – و اللهِ – لَمْ أَنْسَ ما صَنَعْتَهُ مِنْ أَجْلي ، ولَمْ يَذْهَبْ عَنّي كَريمُ فِعْلِكَ ، ولَكِنّي كَرِهْتُ أَنْ أُشْرِكَ مَعَ حَمْدِ اللهِ حَمْدَ أَحَدٍ غَيْرِهِ ، فَجِئْتُكَ الآنَ !»

مِنْ رِجالِ رَبيعَةَ

عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوانَ واحِدٌ مِنْ خُلَفاءِ بَني أُمَيَّةَ ، وهُوَ مِنْ أَنْضَجِهِمْ فِكْرًا ، وأَرْجَحِهِمْ عَقْلاً ، وأَشَدِّهِمْ دَهاءً . مَنَحَهُ اللهُ بَصَرًا ثاقِبًا ، وبَصيرَةً نافِذَةً ، وبَديهَةً مُواتِيَةً ، واكْتَسَبَ ثَقافَةً عالِيَةً ، وخِبْرَةً بارِعَةً .

جَلَسَ عَبْدُ الْمَلِكِ في قَصْرِهِ ، وحَوْلَهُ بَعْضُ أَصْحابِهِ ، وكانَتِ اللَّيْلَةُ مِنْ لَيالي الصَّيْفِ ، الَّتي طابَ فيها الهَواءُ ، واعْتَلَّ النَّسيمُ ، وتَرَقْرَقَ ضَوْءُ الفَجْرِ الفِضِّيُّ عَلى مِياهِ البِرْكَةِ في القَصْرِ ، وتَناثَرَ رَذاذُ الْمِياهِ الصّاعِدَةِ مِنَ النّافورَةِ عَلى الجالِسينَ حَوْلَها ، وتَضَوَّعَ شَذا الوَرْدِ ، يَبُثُّهُ النَّسيمُ ؛ فَانْتَعَشَتِ النُّفوسُ ، وحَلا السَّمَرُ .

وأَرادَ عَبْدُ الْمَلِكِ أَنْ يُثيرَ تَفْكيرَ جُلَسائِهِ ، حَتّى لا

يَدْفَعَهُمُ الجَوُّ الرّائِقُ الْمُمْتِعُ إِلى الرّاحَةِ والسُّكونِ - فَطَرَحَ عَلَيْهِمْ سُؤالاً :

« خَبِّروني عَنْ قَبيلَةٍ عَرَبِيَّةٍ - وأَنْتُمْ عَلى عِلْمٍ بِأَنْسابِ العَرَبِ ، وعَلى دِرايَةٍ بِمَفاخِرِها ومَآثِرِها - خَبِّروني عَنْ قَبيلَةٍ جَمَعَتْ بَيْنَ أَشَدِّ النّاسِ وأَقْواهُمْ ، وأَسْخى النّاسِ وأَجْوَدِهِمْ ، وأَخْطَبِ النّاسِ وأَبْلَغِهِمْ ، وأَطْوَعِ النّاسِ في قَوْمِهِ ؛ يَلْتَزِمونَ مَشورَتَهُ ، ولا يَصْدُرونَ إِلا عَنْ أَمْرِهِ ، وأَحْلَمِ النّاسِ وَأَوْسَعِهِمْ صَدْرًا ، وأَسْرَعِ النّاسِ جَوابًا وأَحْضَرِهِمْ بَديهَةً . هَلْ تَدْرونَ مَنِ القَبيلَةُ العَرَبِيَّةُ الَّتي حَوَتْ هَؤُلاءِ الرِّجالَ جَميعًا ، وضَمَّتْهُمْ بَيْنَ رِجالِها ؛ فَأَصْبَحوا مَثارَ فَخْرِها ، وغُرَّةَ مَناقِبِها ، وسَبيلَ اعْتِزازِها ؟»

أَجابَ الحاضِرونَ - وفيهِمُ العُلَماءُ والشُّعَراءُ والكُتّابُ :

« يا أَميرَ الْمُؤْمِنينَ ، ما نَعْلَمُ هَذِهِ القَبيلَةَ الَّتي جَمَعَتْ فَأَوْعَتْ ، وازْدَهَتْ بِهَذِهِ الباقَةِ الرّائِعَةِ مِنَ الرِّجالِ . »

وفَكَّرَ بَعْضُ الجالِسينَ في أَنْ يَتَقَرَّبَ مِنَ الخَليفَةِ

ويُجامِلَهُ ، فَقالَ :

« يَنْبَغي أَنْ تكونَ هَذِهِ القَبيلَةُ الَّتي ضَمَّتْ هَذِهِ الخِلالَ النّادِرَةَ ، وحَفِظَتْ هَذِهِ الشَّمائِلَ الطّاهِرَةَ ، الَّتي لَوْ فُرِّقَتْ بَيْنَ القَبائِلِ لَكَفَتْها تيهًا وفَخْرًا . يَنْبَغي أَنْ تكونَ قَبيلَةَ قُرَيْشٍ . »

ولَكِنَّ عَبْدَ الْمَلِكِ لَمْ تُرْضِهِ هَذِهِ الْمُجامَلَةُ ، ولَمْ يَخْدَعْهُ هَذا الثَّناءُ ، فَقالَ :

« لا لَيْسَتْ قَبيلَةَ قُرَيْشٍ . »

أَجالَ الحاضِرونَ تَفْكيرَهُمْ ، وأَخَذوا يُقَلِّبونَ صَفَحاتِ تاريخِهِمْ ، ويُنَقِّبونَ عَنْ مَآثِرِ القَبائِلِ العَرَبِيَّةِ ومَكارِمِها ، ويَتَذاكَرونَ رِجالاتِها . ثُمَّ قالوا : « إذا لَمْ تَكُنْ قُرَيْشٌ هِيَ القَبيلَةَ الْمَنْشودَةَ – فإذًا هِيَ حِمْيَرُ ومُلوكُها . »

ولَكِنَّ هَذا الجَوابَ كانَ بَعيدًا عَنِ الصَّوابِ ، فَقالَ عَبْدُ الْمَلِكِ : « ولَيْسَتْ حِمْيَرَ – أَيْضًا – ولا مُلوكَها . »

لَمْ يَعْتَرِفِ الحاضِرونَ بِعَجْزِهِمْ عَنِ الجَوابِ ، فَقالوا :

« هِيَ إذًا قَبيلَةُ مُضَرَ . »

قالَ عَبْدُ الْمَلِكِ : « ولا هَذِهِ أَيْضًا . . إِنَّكُمْ لَمْ تَصِلوا إِلى الحَقيقَةِ بَعْدُ . »

وكانَ بَيْنَ الحاضِرينَ رَجُلٌ اسْمُهُ « مَصْقَلَةُ العَبْدِيُّ » لَمْ يَنْطِقْ حَرْفًا ، ولَمْ يَنْبِسْ بِبِنْتِ شَفَةٍ . لَعَلَّهُ كانَ يَقْدَحُ زِنادَ فِكْرِهِ ، ولَعَلَّهُ آثَرَ أَنْ يُغَطِّيَ جَهْلَهُ بِصَمْتِهِ . ولَكِنَّهُ تَمَلْمَلَ في مَجْلِسِهِ ، واتَّخَذَ صُورَةَ الْمُفَكِّرِ العَميقِ التَّفْكيرِ ، ثُمَّ اعْتَدَلَ في جِلْسَتِهِ ، وتَنَحْنَحَ يَقْطَعُ حَبْلَ الصَّمْتِ الْمُطْبِقِ ، الَّذي رانَ عَلى الْمَجْلِسِ ، وبَلَغَتْ إِلَيْهِ عُيونُ الخَليفَةِ والحاضِرينَ . ثُمَّ قالَ :

« إذا أَذِنَ لي أَميرُ الْمُؤْمِنينَ فإِنَّ قَبيلَةَ رَبيعَةَ هِيَ الَّتي حَوَتْ هَؤُلاءِ الرِّجالَ جَميعًا ، وكانوا الْمَثَلَ النّادِرَ ، والسِّراجَ الوَهّاجَ لِغَيْرِهِمْ مِنْ أَحْياءِ العَرَبِ . »

تَمْتَمَ الحاضِرونَ بِكَلِماتٍ لا تَبينُ ، ومالَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَهامَسونَ : إِنَّ الرَّجُلَ مِنْ رَبيعَةَ ، وقَدْ فَخَرَ بِقَوْمِهِ

عَلى الخَليفَةِ ، وكانَ الأَجْدَرُ بِهِ أنْ يُداريَ في مَجْلِسِ الخَليفَةِ ، ولا يَجْتَرِئَ هَذِهِ الجُرْأَةَ الَّتي قَدْ تُؤَدِّي إلى هَلاكِهِ . ولَكِنَّ الخَليفَةَ عَبْدَ المَلِكِ قَطَعَ هَذِهِ الهَمْهَمَةَ الَّتي سَرَتْ بَيْنَ الحاضِرينَ ، بِقَوْلِهِ :

« نَعَمْ ، هِيَ رَبيعَةُ . »

وأَرادَ بَعْضُ الحاضِرينَ أنْ يَتَمادى في التَّلْميحِ بِفَظاظَةِ « مَصْقَلَةَ العَبْدِيِّ » ، وجَفاءِ طَبْعِهِ ، وفَسادِ ذَوْقِهِ ، فَقالَ :

« يا أَميرَ المُؤْمِنينَ ، إنَّنا لا نَعْرِفُ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ في رَبيعَةَ . »

قالَ عَبْدُ المَلِكِ ، وعَلى شَفَتَيْهِ ابْتِسامَةٌ ماكِرَةٌ :

« إنَّكُمْ تَعْرِفونَ ، ولَكِنَّكُمْ تَتَغابَوْنَ وتَتَجاهَلونَ . سَأُخْبِرُكُمْ بِذَلِكَ . »

واعْتَدَلَ « مَصْقَلَةُ العَبْدِيُّ » في جِلْسَتِهِ ، وعَلَتْ قامَتُهُ ؛ فَقَدْ أَنْصَفَهُ عَبْدُ المَلِكِ ، وأَعْلى قَدْرَهُ ، وسَيَذْكُرُ بِلِسانِهِ مَفاخِرَ قَوْمِهِ ، فَلا يَسْتَطيعُ أَحَدٌ مِنَ الحاضِرينَ أَنْ

يَتَصَدَّى لَهُ ، أَوْ يَتَهَكَّمَ عَلَيْهِ .

وكَذَلِكَ أَرْهَفَ الحاضِرونَ آذانَهُمْ ، وأَقْبَلوا عَلى الخَليفَةِ بِوُجوهِهِمْ ، وتَعَلَّقَتْ بِشَفَتَيْهِ أَبْصارُهُمْ .

قالَ عَبْدُ المَلِكِ :

« أَمَّا أَشَدُّ النّاسِ ، وأَقْواهُمْ نَفْسًا – فَهُوَ << حَكيمُ بْنُ جَبَلَةَ >> ، كانَ في جَيْشِ عَلِيِّ بْنِ أَبي طالِبٍ ﵁ حينَ اضْطَرَمَتِ الفِتْنَةُ بَيْنَ المُسْلِمينَ ، وقُطِعَتْ ساقُهُ في المَعْرَكَةِ ، فَلَمْ يَضْعُفْ ولَمْ يَجْزَعْ ، بَلْ ضَمَّ ساقَهُ المَقْطوعَةَ إلَيْهِ ، وانْتَظَرَ يَتَرَقَّبُ ، فَإذا الَّذي قَطَعَها يَمُرُّ بِهِ ، وإذا هُوَ يَرْميهِ بِهَذِهِ السّاقِ المَقْطوعَةِ فَيُسْقِطُهُ مِنْ فَوْقِ دابَّتِهِ ، وإذا هُوَ يَزْحَفُ إلَيْهِ زَحْفًا حَتّى يَبْلُغَهُ ، فَيَقْتُلَهُ ثُمَّ يَتَّكِئَ عَلَيْهِ ، ويَجْعَلَهُ وِسادَةً لَهُ . ويَمُرُّ بِهِ بَعْضُ القَوْمِ فَيَقولونَ لَهُ : << يا حَكيمُ ، مَنْ قَطَعَ ساقَكَ ؟ >>

« فَيُجيبُهُمْ : << وِسادي ! >> »

« وأَمّا أَسْخى النّاسِ يَدًا ، وأَكْثَرُهُمْ كَرَمًا وجودًا . .
فَهُوَ ‹‹ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَوّارٍ ›› ، لَقَدْ عَيَّنَهُ ‹‹ مُعاوِيَةُ ››
والِيًا عَلى السِّنْدِ ، فَسارَ إِلَيْها ومَعَهُ أَرْبَعَةُ آلافٍ مِنَ
الجُنودِ ، وكانَ مِنْ عادَتِهِ أَنْ يُطْعِمَ مَنْ يُصاحِبُهُ حَيْثُما
سارَ ، فَلا يُوقِدُ أَحَدٌ غَيْرُهُ نارًا . وفي يَوْمٍ أَبْصَرَ نارًا
مُوقَدَةً ، فَسَأَلَ عَنْها ، فَقالوا لَهُ : ‹‹ أَصْلَحَ اللهُ الأَميرَ
ورَعاهُ ، إِنَّ واحِدًا مِنْ رِجالِنا قَدِ اعْتَلَّتْ صِحَّتُهُ ، وداهَمَهُ
الْمَرَضُ ، واشْتَهى أَنْ يَأْكُلَ خَبيصًا ، ذَلِكَ الطَّعامُ الَّذي
يُصْنَعُ مِنَ التَّمْرِ والسَّمْنِ ، فَصَنَعْناهُ لَهُ ، ولَمْ نَشَأْ أَنْ نُرْهِقَ
الأَميرَ بِطَلَبِ الْمَريضِ . ››

« فَأَمَرَ ‹‹ عَبْدُ اللهِ ›› خَبّازَهُ وطَبّاخَهُ أَلا يُطْعِموا النّاسَ
جَميعًا غَيْرَ الخَبيصِ ، وظَلَّ النّاسُ يُطْعَمونَ الخَبيصَ حَتّى
ضاقوا بِهِ وصاحوا :

« ‹‹ أَيُّها الأَميرُ ، أَصْلَحَكَ اللهُ ، رُدَّنا إِلى الخُبْزِ
واللَّحْمِ فَقَدْ سَئِمْنا الخَبيصَ ›› »

وهُنا سَرى بَيْنَ الحاضِرينَ هَمْسٌ وغَمْزٌ ، فَقَدْ أَسالَ

ذِكْرُ الخَبيصِ لُعابَهُمْ ، وجَرى في حُلوقِهِمْ ، وتَلَمَّظَتْ
شِفاهُهُمْ ، فَقالَ عَبْدُ الْمَلِكِ :

« ما لي أَسْمَعُ هَمْسًا ، ولا أَتَبَيَّنُ نُطْقًا ؟»

فَقالَ واحِدٌ مِنَ الظُّرَفاءِ : « يا أَميرَ الْمُؤْمِنينَ ، لَقَدْ
ذَكَرْتَ الخَبيصَ !»

فَضَحِكَ عَبْدُ الْمَلِكِ ، وأَمَرَ غِلْمانَهُ بِأَنْ يُعِدّوا
لِلحاضِرينَ طَعامَ الخَبيصِ ، واسْتَمَرَّ في قَوْلِهِ :

« وأَمّا أَطْوَعُ النّاسِ في قَوْمِهِ ؛ إِذْ لا يُخالِفونَ لَهُ رَأْيًا ،
ولا يَخْرُجونَ عَنْ مَشورَتِهِ - فَهُوَ ‹‹ الجارودُ بْنُ
العَلاءِ ›› ، فَحينَ انْتَقَلَ الرَّسولُ ﷺ إِلى الرَّفيقِ الأَعْلى ،
وأَخَذَتِ القَبائِلُ العَرَبِيَّةُ تَرْتَدُّ عَنِ الإِسْلامِ ، وتَعودُ إِلى
مِثْلِ ما كانَتْ عَلَيْهِ في الجاهِلِيَّةِ ، وادَّعى بَعْضُ النّاسِ
النُّبُوَّةَ - حينَئِذٍ خَطَبَ ‹‹ الجارودُ ›› في قَوْمِهِ ، وبَيَّنَ لَهُمْ
أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ قَدْ ماتَ ، فَهُوَ بَشَرٌ كَسائِرِ البَشَرِ ، يَموتُ
كَما يَموتونَ فَمَنْ كانَ يَعْبُدُ ‹‹ مُحَمَّدًا ›› فَإِنَّهُ قَدْ ماتَ ،
ومَنْ كانَ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ فَإِنَّ اللهَ حَيٌّ لا يَموتُ . وأَمَرَهُمْ

أنْ يَسْتَمْسِكوا بدينِهِمْ ، ويَعْتَصِموا بِحَبْلِ رَبِّهِمْ . ثُمَّ وَعَدَهُمْ بأَنْ يُعَوِّضَ أيَّ واحِدٍ ضاعَ لَهُ شَيْءٌ في هَذِهِ الرِّدَّةِ بِمِثْلَيْهِ . فَلَمْ يَخْرُجْ أَحَدٌ مِنْ قَوْمِهِ عَنْ طاعَتِهِ ، ونَزَلوا جَميعًا عِنْدَ رَأْيِهِ ، واسْتَجابوا لأَمْرِهِ .

« وأَمّا أَحْضَرُ النّاسِ جَوابًا ، وأَسْرَعُهُمْ بَديهَةً فَهُوَ « صَعْصَعَةُ بْنُ صوحانَ » ، دَخَلَ عَلى « مُعاوِيَةَ » في وَفْدٍ مِنْ قَوْمِهِ ، فاسْتَقْبَلَهُمْ « مُعاوِيَةُ » اسْتِقْبالاً ، لَمْ يُبالِغْ في التَّرْحيبِ بِهِمْ ، ولَمْ يُظْهِرِ الازْدِراءَ مِنْهُمْ ، وتَحَدَّثَ إلَيْهِمْ ، وكَأَنَّهُ يَمُنُّ عَلَيْهِمْ ، قالَ :

« « مَرْحَبًا بِكُمْ ، قَدِمْتُمْ هَذِهِ الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ . قَدِمْتُمْ عَلى خَيْرِ أَميرٍ ، يَبَرُّ كَبيرَكُمْ ويُجِلُّهُ ، ويَرْحَمُ صَغيرَكُمْ ويَعْطِفُ عَلَيْهِ . ولَوْ أَنَّ النّاسَ كُلَّهُمْ وَلَدُ أَبي سُفْيانَ لَكانوا كُلُّهُمْ حُكَماءَ عُقَلاءَ . »

« وضاقَتْ نُفوسُ القَوْمِ بِما تَحْمِلُهُ كَلِماتُ مُعاوِيَةَ مِنْ تَعْريضٍ بِهِمْ ، وقَدْحٍ في دِيارِهِمْ وأَرْضِهِمْ ؛ فَقَدْ كانوا يَسْكُنونَ العِراقَ . وأَشاروا إلى « صَعْصَعَةَ » ، وَقَفَ

« صَعْصَعَةُ » فَحَمِدَ اللهَ وأَثْنى عَلَيْهِ ، وصَلّى وسَلَّمَ عَلى الرَّسولِ وآلِهِ ، ثُمَّ قالَ :

« « يا مُعاوِيَةُ ، إنَّ قَوْلَكَ : إنّا قَدِمْنا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ - فَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّ الأَرْضَ ، مَهْما تَكُنْ حُرْمَتُها ، لا تُقَدِّسُ النّاسَ ، ولا تَرَقّى بِمَنازِلِهِمْ ، ولا تُعَلّي أَقْدارَهُمْ ، وإنَّما الأَعْمالُ هِيَ الَّتي تُقَدِّسُ النّاسَ ، وتَرْفَعُ شَأْنَهُمْ ، والأَرْضُ مَهْما تَكُنْ حُرْمَتُها ، لا يَنْفَعُ قُرْبُها عاصِيًا ، ولا يَضُرُّ بُعْدُها مُؤْمِنًا .

« « وأَمّا قَوْلُكَ : لَوْ أَنَّ النّاسَ كُلَّهُمْ وَلَدُ أَبي سُفْيانَ ، لَكانوا حُكَماءَ عُقَلاءَ - فَما أَظُنُّهُ يَخْفى عَلَيْكَ ، وأَنْتَ وَلَدُ أَبي سُفْيانَ ، أَنَّ النّاسَ قَدْ وَلَدَهُمْ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْ أَبي سُفْيانَ وأَفْضَلُ ، وهُوَ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلامُ ، ومَعَ ذَلِكَ فَمِنْهُمُ الحَليمُ والسَّفيهُ ، والعالِمُ والجاهِلُ ، والعاقِلُ والأَحْمَقُ . » »

اخْتَلَسَ الحاضِرونَ النَّظَرَ بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ ؛ فَعَبْدُ المَلِكِ الخَليفَةُ الأُمَوِيُّ - يُعْلي مِنْ شَأْنِ رَجُلٍ مِنْ رَبيعَةَ

أَمامَ مُؤَسِّسِ الدَّوْلَةِ الأُمَوِيَّةِ ، ويُشيدُ بحُضورِ بَديهَةِ الرَّجُلِ ، وقُدْرَتِهِ عَلى رَدِّ الجَوابِ في سُرْعَةٍ فائِقَةٍ ، دونَ خَوْفٍ أَوْ وَجَلٍ ، ودونَ تَلَعْثُمٍ واضْطِرابٍ . وخُيِّلَ لِبَعْضِهِمْ أَنَّ عَبْدَ المَلِكِ يَلْحَظُهُمْ ، فَأَسْرَعَ يَقولُ :

« بَقِيَ أَحْلَمُ النّاسِ و أَوْسَعُهُمْ صَدْرًا ، يا أَميرَ المُؤْمِنينَ . »

ابْتَسَمَ عَبْدُ المَلِكِ ، وقَدْ وَعَى عَنِ القَوْمِ ما دارَ بِخَلَدِهِمْ ، فَقالَ :

« أَمّا أَحْلَمُ النّاسِ و أَوْسَعُهُمْ صَدْرًا ، الَّذي يَزِنُ حِلْمُهُ الجَبَلَ رَزانَةً وهُدوءًا - فَهُوَ ‹‹ الأَشَجُّ ›› فَقَدْ قَدِمَ مَعَ قَوْمِهِ مِنْ رَبيعَةَ عَلى رَسولِ اللهِ ﷺ ، ومَعَهُمْ زَكاةُ أَمْوالِهِمْ ، فَقَبِلَ الرَّسولُ مِنْهُمُ الزَّكاةَ ، وفَرَّقَها بَيْنَ أَصْحابِهِ ، ثُمَّ أَشارَ إِلى ‹‹ الأَشَجِّ ›› وَقالَ لَهُ : اُدْنُ مِنّي .

« فَدَنا مِنْهُ ‹‹ الأَشَجُّ ›› حَتّى لامَسَتْ رُكْبَتاهُ رُكْبَتَي الرَّسولِ ﷺ ، فَقالَ لَهُ الرَّسولُ الكَريمُ :

« ‹‹ إِنَّ فيكَ خَلَّتَيْنِ (صِفَتَيْنِ) يُحِبُّهُما اللهُ : الأَناةُ والحِلْمُ . ››

« وكَفى بِرَسولِ اللهِ شاهِدًا عَلى ما ازْدانَ بِهِ ‹‹ الأَشَجُّ ›› مِنْ خِلالٍ ! »

وصَمَتَ « عَبْدُ المَلِكِ » لِيَرى أَثَرَ قَوْلِهِ في وُجوهِ الحاضِرينَ ، ويَلْمُسَ مَدى تَجاوُبِهِمْ ، أَوِ انْصِرافِهِمْ . ورَأى قامَةَ « مَصْقَلَةَ العَبْدِيِّ » تَسْتَطيلُ وتَسْتَطيلُ كَأَنَّها ذاهِبَةٌ في السَّماءِ ، ورَأى القَوْمَ مِنْ حَوْلِهِ يَتَقاصَرونَ ويَتَقاصَرونَ كَأَنَّهُمْ ذاهِبونَ في الأَرْضِ ، فَقالَ :

« الحَمْدُ للهِ الَّذي جَعَلَنا نَعْرِفُ لِلنّاسِ أَقْدارَهُمْ ، ونَذْكُرُ لَهُمْ فَضائِلَهُمْ ، ونُنْزِلُهُمُ المَكانَةَ اللائِقَةَ بِهِمْ ، فَإِنَّما يَعْرِفُ الفَضْلَ لأَهْلِ الفَضْلِ ذَوُوهُ ! » ثُمَّ صَفَّقَ بِيَدَيْهِ ، ودَعا بِالخَبيصِ لِيَطْعَمَ الحاضِرونَ هَنيئًا مَريئًا .

البُشْرى

الْتقى الشّاعِرُ الحِجازِيُّ مُحَمَّدُ بْنُ صالح العَلَوِيُّ ، بالشّاعِرِ العِراقِيِّ إِبْراهيمَ بْنِ الْمُدَبِّرِ في مَدينَةِ بَغْدادَ ، فَقالَ مُحَمَّدٌ لإِبْراهيمَ :

« أَوَدُّ أَنْ أُقيمَ عِنْدَكَ يَوْمًا ، أَخْلُو فيهِ إِلَيْكَ ؛ لأَبُثَّكَ بَعْضَ شَأْني ، وأَنْفُضَ بَيْنَ يَدَيْكَ بَعْضَ هَمّي ، مِمّا لا يَصْلُحُ أَنْ يَسْمَعَهُ غَيْرُكَ ، أَوْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ سِواكَ . »

قالَ إِبْراهيمُ : « هَلُمَّ بِنا إِلى داري ؛ فَيَبْدُو أَنَّ هُناكَ ما يَكْرُبُكَ ، ويَحْرَجُ صَدْرَكَ ، ويُفْعِمُ بِالأَسى قَلْبَكَ ، ولا يَنْطَلِقُ بِهِ لِسانُكَ . »

وانْطَلَقَ الشّاعِرانِ إلى دار « إِبْراهيمَ » ، يُخَيِّمُ عَلَيْهِما الصَّمْتُ ، ويُطْبِقُ عَلَيْهِما السُّكُونُ ، لا يُسْمَعُ إِلا وَقْعُ

أَقْدامِهِما عَلى الأَرْضِ ، وإِلا وَجيبُ قَلْبِ « العَلَوِيِّ » ، وصَدْرُهُ يَعْلو ويَهْبِطُ ، وتَتَصاعَدُ مِنْهُ زَفَراتٌ حَرّى بَيْنَ الحينِ والحينِ .

اطْمَأَنَّ بِهِما الْمُقامُ في بَيْتِ « إِبْراهيمَ » ، وأَصابا مِنَ الطَّعامِ أَيْسَرَهُ ، ثُمَّ قالَ إِبْراهيمُ لِصاحِبِهِ : « هَيّا ، يا عَلَوِيُّ ، هاتِ ما عِنْدَكَ ؛ فَكُلّي آذانٌ مُصْغِيَةٌ إِلَيْكَ . ولَعَلَّ اللهَ يُيَسِّرُ لي تَفْريجَ كَرْبِكَ ، وإِزاحَةَ هَمِّكَ . »

قالَ العَلَوِيُّ : « كُنْتُ قَدْ خَرَجْتُ مَعَ بَعْضِ أَصْحابي ، مُنْذُ سِنينَ ، عَلى قافِلَةٍ مِنَ القَوافِلِ ، كانَتْ في طَريقِها إِلى الْمَدينَةِ ، فَقاتَلْنا مَنْ كانَ فيها ، فَغَلَبْناهُمْ عَلى أَنْفُسِهِمْ ، وهَزَمْناهُمْ ، ومَلَكْنا القافِلَةَ . وبَيْنا أُنيخُ ما كانَ فيها مِنْ جِمالٍ ، وأُحْصي ما تَحْمِلُهُ مِنْ مالٍ ومَتاعٍ ، طَلَعَتْ عَلَيَّ امْرَأَةٌ ذاتُ حُسْنٍ وجَمالٍ ، وبَهاءٍ وجَلالٍ ، لَمْ أَرَ قَطُّ أَصْبَحَ مِنْها وَجْهًا ، ولا أَرْشَقَ قامَةً ، ولا أَعْذَبَ مَنْطِقًا ، ولا أَحْلى بَيانًا ، فَقالَتْ : « يا هَذا ،



أُريدُكَ أَنْ تُسْدِيَ إِليَّ جَميلاً ، وتَصْنَعَ فِيَّ مَعْروفًا . »
فَقُلْتُ لَها : « لَبَّيكِ سَيِّدَتي . »

قالَتْ : « إنْ شِئْتَ دَعَوْتَ لِيَ الشَّريفَ الْمُتَوَلِّيَ أَمْرَ هَذا الجَيْشِ ، الَّذي هَزَمَ رِجالَنا ، واحْتازَ قافِلَتَنا . »

قُلْتُ : « إِنَّهُ أَمامَكِ ، يا سَيِّدَتي ، قَدْ رَأَيْتِهِ بِعَيْنَيْكِ ، وسَمِعَ كَلامَكِ ؛ فَماذا تُريدينَ ؟ »

قالَتْ : « سَأَلْتُكَ بِحَقِّ اللهِ ورَسولِهِ : أَأَنْتَ هُوَ ؟ »

قُلْتُ : « نَعَمْ ، وحَقِّ اللهِ وحَقِّ رَسولِهِ . »

قالَتْ : « أَنا ‹‹ حَمْدونَةُ بِنْتُ عيسى بْنِ موسى ›› ، ولأَبي مَكانَةٌ رَفيعَةٌ ، وجاهٌ واسِعٌ ، وسُلْطانٌ عَريضٌ ، ونِعْمَةٌ سابِغَةٌ . إنْ كُنْتَ قَدْ سَمِعْتَ عَنْهُ فَيَكْفيكَ ما سَمِعْتَ ، وإنْ كُنْتَ لَمْ تَسْمَعْ فَسَلْ غَيْري يُنْبِئْكَ الخَبَرَ اليَقينَ . و واللهِ لَنْ أَحْجُبَ عَنْكَ شَيْئًا مِمّا أَمْلِكُ ، ولا أَسْتَأْثِرُ بِهِ دونَكَ ، هَذِهِ أَلْفُ دينار مَعي لِنَفَقَتي ، خُذْها حالاً ، وهَذا حَلْيٌ أَتَزَيَّنُ بِهِ ، ثَمَنُهُ خَمْسُمائَةِ دينارٍ ، خُذْهُ

الآنَ ، وما تُريدُهُ بَعْدَ ذَلِكَ آخُذُهُ لَكَ مِنْ تُجّارِ الْمَدينَةِ مَتى بَلَغْناها ؛ فَما أَحَدٌ مِنْهُمْ يَمْنَعُني شَيْئًا أَطْلُبُهُ. وما أُريدُ مِنْكَ لِقاءَ ذَلِكَ إلا أَنْ تَصونَني وتَسْتُرَني ، وتَدْفَعَ عَنّي وتَحْميني مِنْ أَصْحابِكَ ، ومِنْ عارٍ قَدْ يَلْحَقُني .

« أَثَّرَ قَوْلُها في نَفْسي ، و وَقَعَ مِنْ قَلْبي مَوْقِعًا عَظيمًا ، وحَرَّكَ كُلَّ العَواطِفِ النَّبيلَةِ في صَدْري ، فَقُلْتُ لَها : يا سَيِّدَتي ، قَدْ وَهَبَ اللهُ لَكِ مالَكِ وحَلْيَكِ وجاهَكِ ، و وَهَبَ لَكِ القافِلَةَ بِكُلِّ ما فيها .

« ثُمَّ نادَيْتُ أَصْحابي فاجْتَمَعوا لَدَيَّ ، وقُلْتُ لَهُمْ : قَدْ أَجَرْتُ هَذِهِ القافِلَةَ ، ولَها ذِمَّةُ اللهِ وذِمَّةُ رَسولِهِ وذِمَّتي ، فَمَنْ أَخَذَ مِنْها خَيْطًا أَوْ عِقالاً فَقَدْ آذَنْتُهُ بالحَرْبِ ، وقاتَلْتُهُ ما اسْتَقامَ سَيْفي في يَدي .

« فَأَطاعوا أَمْري ، وانْصَرَفوا مَعي ، وخَلَّفْنا القافِلَةَ تَمْضي في طَريقِها بِسَلامٍ و أَمانٍ . »

صَمَتَ « العَلَوِيُّ » كَأَنَّما يَسْتَعيدُ ذِكْرَياتٍ عَزيزَةً غالِيَةً ،

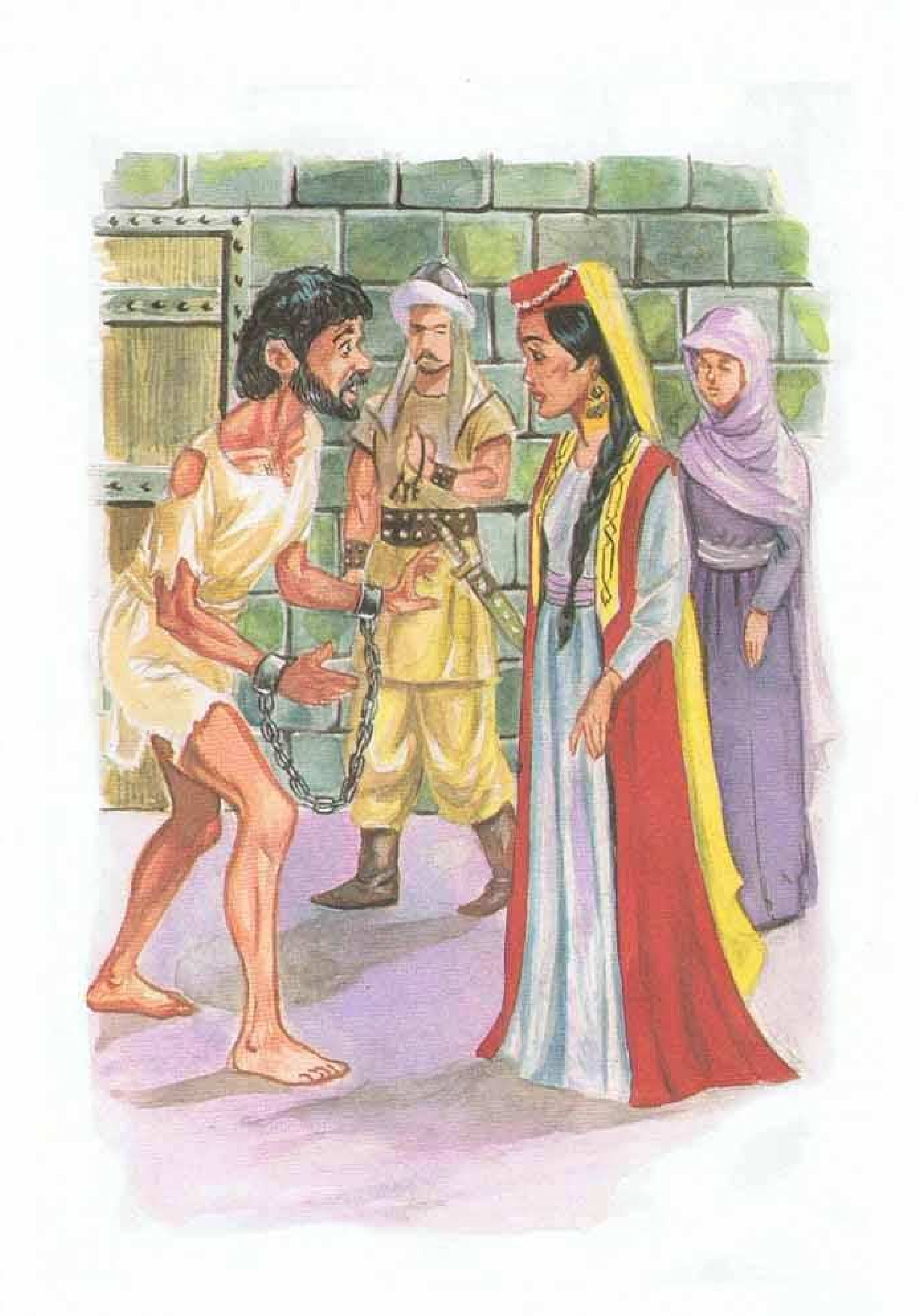
يَضَنُّ بالبَوْحِ بِها ، أَوْ لا يَوَدُّ الإِساءَةَ إِلَيْها بالحَديثِ عَنْها .

فَقالَ لَهُ « إِبْراهيم » يَسْتَحِثُّهُ عَلى الإِفْضاءِ بِمَكْنونِ صَدْرِهِ : « إِنْ كانَ الأَمْرُ كَما قُلْتَ فَما أَرى فيهِ هَمّا ولا غَمّا ، ولا أَرى فيهِ بَثّا و لا حُزْنًا ، فَماذا يُضْنيكَ إِذًا ؟»

قالَ العَلَوِيُّ: « لا تَثْريبَ عَلَيْكَ ، يا إِبْراهيمُ ، فالحَديثُ لَمْ يَنْتَهِ بَعْدُ . تَعْلَمُ أَنَّني قَدْ خَرَجْتُ عَنْ طاعَةِ الخَليفَةِ الْمُتَوَكِّلِ ، وثُرْتُ عَلَيْهِ ، فَأَخَذَني وحَبَسَني ، وبَيْنا أَنا في الحَبْسِ في مَدينَتِكُمْ هَذِهِ ، أَرْسُفُ في قُيودي ، وأَجْتَرُّ أَحْزاني ، وأَضيقُ بِذِلَّتي وهَواني - جاءَني السَّجّانُ يَقولُ لي :

« إِنَّ بالبابِ امْرَأَتَيْنِ تَزْعُمانِ أَنَّهُما مِنْ أَهْلِكَ ، وتَرْغَبانِ في زِيارَتِكَ ، وقَدْ حُظِرَ عَلَيَّ أَنْ أُدْخِلَ أَحَدًا عَلَيْكَ ، ولَكِنَّهُما أَجْزَلَتا لِي في العَطِيَّةِ ، فإِنْ شِئْتَ فاخْرُجْ إِلَيْهِما في هَذا الدِّهْليزِ ، ولا تُطِلِ البَقاءَ مَعَهُما . »

فَقُلْتُ في نَفْسي لِنَفْسي : « مَنْ يَجيئُني في هَذا البَلَدِ



النّائي البَعيدِ ؟ ومَنْ يَسْأَلُ عَنِّي وأنا بِهِ غَريبٌ ؟ لا أَعْرِفُ أَحَدًا ولا يَعْرِفُني فيه أَحَدٌ . »

وتَرَدَّدْتُ في الخُروجِ إِلَيْهِما ما وَسِعَني التَّرَدُّدُ ، وما زالَ بيَ السَّجّانُ يَسْتَحِثُّني عَلى الخُروجِ إِلَيْهِما ؛ خَشْيَةَ أَنْ تَفوتَهُ العَطيَّةُ إِنْ تكَرَّرَتِ الزِّيارَةُ ، وتَكَرَّرَ السُّؤالُ وما زالَ بي يَسْتَحِثُّني ويُغْريني حَتّى خَرَجْتُ إِلَيْهِما ، فإِذا بِصاحِبَتي وصاحِبَةٍ لَها !

عَقَدَتِ المُفاجَأَةُ لِساني ، وكِدْتُ أَخِرُّ مَغْشِيًّا عَلَيَّ ، ولَكِنّي تَجَلَّدْتُ وتَماسَكْتُ ؛ حَتّى لا تُدْرِكَ أَنَّ السِّجْنَ قَدْ أَفْقَدَني العَزيمَةَ والصَّبْرَ . أَمّا هِيَ فَقَدِ انْهَمَرَتْ دُموعُها ، وعَلا نَشيجُها حينَ وَقَعَ بَصَرُها عَلَيَّ ، ورَأَتْ ما طَرَأَ عَلَيَّ مِنْ تَغْييرٍ في مَظْهَري ، وما يُثْقِلُني مِنْ حَديدِ قَيْدي ! فَأَقْبَلَتْ عَلَيْها صاحِبَتُها تُهَدِّئُ مِنْ رَوْعِها ، وتَقولُ لَها :

« أَهُوَ صاحِبُكِ الَّذي أَنْقَذَكِ مِنْ وَرْطَتِكِ؟ أَواثِقَةٌ أَنْتِ مِنْ ذَلِكَ ، لَمْ يَخْتَلِطْ عَلَيْكِ مِنْهُ شَيْءٌ ؟ »

أَجابَتْها : « واللهِ ، إِنَّهُ هُوَ ، صاحِبُ الشَّهامَةِ والْمُروءَةِ ، صانِعُ الْمَعروفِ الَّذي لا يَضيعُ عِنْدَ اللهِ والنّاسِ . »

ثُمَّ أَقْبَلَتْ عَلَيَّ ، وقالَتْ لي : « نَفْسي فِداؤُكَ ، واللهِ لَو اسْتَطَعْتُ أَنْ أَقيكَ مِمّا أَنْتَ فيه بِنَفْسي ومالي لَفَعَلْتُ ، وأَنْتَ بِذَلِكَ جَديرٌ وحَقيقٌ . واللهِ لَنْ أَتْرُكَ مُعاوَنَتَكَ ، والسَّعْيَ في خَلاصِكَ وإِنْقاذِكَ ما وَجَدْتُ إِلى ذَلِكَ سَبيلاً . وهَذِهِ ثِيابٌ ودَنانيرُ اسْتَعِنْ بِها في إِصْلاحِ شَأْنِكَ ، وسَيَأْتيكَ رَسولي كُلَّ يَوْمٍ بِطَعامِكَ وما يُصْلِحُكَ ، حَتّى يُفَرِّجَ اللهُ كَرْبَكَ كَما فَرَّجْتَ كَرْبي ، ويُزيحَ عَنْكَ الغُمَّةَ كَما أَزَحْتَها عَنّي ، وتَنْجَلِيَ مِحْنَتُكَ كَما كُنْتَ جَلاءَ مِحْنَتي . لا تَجْزَعْ و لا تَقْنَطْ فَإِنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرًا ! »

وكانَ رَسولُها يَأْتيني كُلَّ يَوْمٍ بِطَعامٍ شَهِيٍّ نَظيفٍ ، وبِرُّها يَتَواصَلُ بالسَّجّانِ ؛ فَلا يَمْتَنِعُ عَلَيَّ في شَيْءٍ مِمّا أُريدُ . ثُمَّ مَنَّ اللهُ عَلَيَّ بِانْقِشاعِ الغُمَّةِ ، وانْكِشافِ المِحْنَةِ ، وعَفا عَنّي الخَليفَةُ ، وأَخْرَجَني مِنَ السِّجْنِ ، ويا لَيْتَهُ ما فَعَلَ ! »

مَلأَ التَّعَجُّبُ والدَّهْشَةُ وَجْهَ « إِبْراهيم » ، وسادَتْ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ فَتْرَةُ صَمْتٍ ، قَطَعَها « إِبْراهيم » بِقَوْلِهِ : « مَعاذَ اللهِ ، يا رَجُلُ ! هَلْ هُناكَ مَنْ يَتَمَنّى أَنْ تُغَلَّ يَدُهُ ، وتُقَيَّدَ حُرِّيَّتُهُ ، ويُزَجَّ بِهِ في السِّجْنِ بَعيدًا عَنْ أَهْلِهِ ، غَريبًا عَنْ مَدينَتِهِ . »

قالَ العَلَوِيُّ : « نَعَمْ ، يا إِبْراهيمُ ، لَقَدْ كانَ السِّجْنُ أَحَبَّ إِلَيَّ ، و أَهْوَنَ عَلَيَّ مِمّا أَنا فيهِ . »

قالَ إِبْراهيمُ : « وما هَذا الَّذي أَنْتَ فيه حَتّى يَكونَ السِّجْنُ أَحَبَّ إِلَيْكَ ، وأَهْوَنَ عَلَيْكَ ؟ »

أَجابَ العَلَوِيُّ في نَبْرَةٍ آسِيَةٍ مُلْتاعَةٍ : « لَقَدْ خَرَجْتُ مِنَ السِّجْنِ ، يَحْدوني أَمَلٌ قَوِيٌّ في أَنْ يَجْتَمِعَ شَمْلي بِشَمْلِها ، ويُطْمِعُني صَنيعُها في أَنْ تَسْتَجيبَ لِخِطْبَتي لَها . فَلَمّا حَدَّثْتُها في ذَلِكَ قالَتْ : ‹‹ لَوْ كانَ الأَمْرُ إِلَيَّ فَأَنا لَكَ تابِعَةٌ مُطيعَةٌ ، ولَوْ طُفْتُ الأَرْضَ كُلَّها ما وَجَدْتُ خَيْرًا مِنْكَ ، ولَكِنَّ الأَمْرَ إِلى أَبي . ››

« فَسَعَيْتُ إلى أَبيها ، وخَطَبْتُها إلَيْهِ ؛ فَرَدَّني رَدًّا قَبيحًا ، وقُمْتُ مِنْ عِنْدِهِ مُنْكَسِرًا مَحْزونًا . »

أَصابَ الحُزْنُ نَفسَ « إبْراهيم » عِنْدَما أَدْرَكَ ما انْتهى إلَيْهِ أَمْرُ صاحِبِهِ ، وأَطْرَقَ بِرَأْسِهِ إلى الأَرْضِ ، ثُمَّ رَفَعَ بَصَرَهُ إلى صاحِبِهِ ، وحَدَّقَ فيهِ ، وقالَ لَهُ : « أَمّا أَبوها فَسَأَكْفيكَ أَمْرَهُ ، واللهُ الْمُسْتَعانُ عَلَيْهِ . إنَّ لأَخي عِنْدَهُ يَدًا لا تُنْسى ؛ فَهُوَ صَنيعَتُهُ ورَبيبُ نِعْمَتِهِ . »

فَلَمّا كانَ الغَدُ سَعى « إبْراهيم » إلى أَبيها ، ولَقِيَهُ في مَنْزِلِهِ ، و قالَ لَهُ : « لَقَدْ جِئْتُكَ ، يا عيسى ، في حاجَةٍ لي . »

قالَ عيسى : « هِيَ مَقْضِيَّةٌ إنْ شاءَ اللهُ ، وقَدْ كُنْتُ أُوثِرُ أَنْ تَبْعَثَ إلَيَّ فَآتِيَكَ ، ولا تُكَلِّفَ نَفْسَكَ مَشَقَّةَ السَّعْيِ إلَيَّ ، وإنْ كانَتْ داري قَدْ شَرُفَتْ و مَنْ فيها بِمَقْدَمِكَ . »

قالَ إبْراهيمُ ، وقَدْ أَطْمَعَهُ قَوْلُ عيسى : « جِئْتُكَ خاطِبًا إلَيْكَ ابْنَتَكَ . »

أَسْرَعَ عيسى بالجَواب في نَغْمَةٍ فَرِحَةٍ مَسْرورَةٍ : « هِيَ لَكَ جارِيَةٌ مُطيعَةٌ ، وقَدْ أَجَبْتُكَ إلى ما طَلَبْتَ . »

فَقالَ لَهُ إبْراهيمُ في سُرْعَةٍ : « لَقَدْ خَطَبْتُها عَلى مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنّي نَسَبًا ، وأَشْرَفُ لَكَ صِهْرًا . »

وَجَمَ « عيسى » قَليلاً ، ثُمَّ اسْتَدْرَكَ أَمْرَهُ ، و قالَ : « مَنْ هُوَ ، يا سَيِّدي ، الَّذي جِئْتَ في أَمْرِهِ ؟ »

قالَ إبْراهيمُ : « مُحَمَّدُ بْنُ صالِح العَلَوِيُّ ! »

سَكَتَ « عيسى » وسَكَنَ . صَمَتَ لَحْظَةً خالَها إبْراهيمُ دَهْرًا طَويلاً ، ثُمَّ قالَ : « سَيِّدي ، هَلا كانَ غَيْرَ هَذا ؟ »

ولَمْ يَزَلْ بِهِ « إبْراهيمُ » يُحاوِرُهُ ، ويَرْفُقُ بِهِ ، حَتّى رَضِيَ وأَجابَ ، و أَرْسَلَ « إبْراهيمُ » إلى العَلَوِيِّ مَنْ يَزُفُّ إلَيْهِ البُشْرى !

الواعظُ الأمينُ

كانَ الوَقْتُ رَبيعًا : هَطَلَ الْمَطَرُ ، وارْتَوَتِ الصَّحْراءُ الظّامِئَةُ ، وبَدَأَتِ الأرْضُ تَأْخُذُ زينَتَها ، وتَلْبَسُ ثَوْبَها الْمُوَشّى بالزُّهورِ النّاضِرَةِ ، والوَرْدِ الجَميلِ ، وتَكْتَسي بالعُشْبِ الأَخْضَرِ ، الَّذي تَسْتَريحُ إِلَيْهِ العُيونُ ، وتَسْكُنُ إِلَيْهِ النُّفوسُ ، ويَسْتَغْرِقُ القَلْبُ في مُناجاةِ رَبِّهِ ، ويُسَبِّحُ في مَلَكوتِهِ .

وجاءَ وَفْدٌ مِنْ أَهْلِ العِراقِ إلى دِمَشْقَ ، فَلَمْ يَجِدوا أَميرَ الْمُؤْمِنينَ : هِشامَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ فيها ، وإِنَّما وَجَدوهُ قَدْ خَرَجَ مَعَ أَهْلِهِ وذَوي قَرابَتِهِ ، و وُزَرائِهِ وحاشِيَتِهِ ، وجُلَسائِهِ الْمُقَرَّبينَ ، خَرَجوا جَميعًا إلى الصَّحْراءِ الْمُترامِيَةِ الأَطْرافِ ، يَنْعَمونَ بِهَذا الفَضاءِ الشّاسِعِ ، الَّذي يَمْتَدُّ فيهِ البَصَرُ إلى مَداهُ ، لا تَصُدُّهُ الأَبْنِيَةُ ، ولا

تَرُدُّهُ الجِبالُ ، ويَسْتَمْتِعونَ بِهَذا البِساطِ الأَخْضَرِ الزّاهي ، الَّذي فُرِشَتْ بِهِ الأَرْضُ ، وزُيِّنَ بِنُقوشٍ رائِعَةٍ مِنَ الزُّهورِ البَرِّيَّةِ ، فَغَدا في أَحْسَنِ مَنْظَرٍ ، وأَجْمَلِ صورَةٍ ، لا يَسْتَطيعُ فَنّانٌ أَنْ يُبْدِعَها ، مَهْما يَسْمُ فَنُّهُ ، وعَلَتْ قُدْرَتُهُ ؛ فَتَبارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخالِقينَ .

ذَهَبَ الوَفْدُ العِراقِيُّ إلى حَيْثُ أَميرُ الْمُؤْمِنينَ ، فَوَجَدوا سُرادِقًا مَنصوبًا مِنَ النَّسيجِ اليَمَنِيِّ الأَحْمَرِ ، الْمُنَقَّطِ بِنُقَطٍ سَوْداءَ صَغيرَةٍ ، فَبَدا في جَمالِهِ وجَلالِهِ يَأْخُذُ الأَبْصارَ ، وقَدْ فُرِشَتْ أَرْضُهُ بِبُسُطٍ مَنْقوشَةٍ زاهِيَةٍ ، فَوْقَها فُرُشٌ مِنَ الحَريرِ الأَحْمَرِ ، مِثْلُها وَسائِدُها . وفي صَدْرِ السُّرادِقِ جَلَسَ أَميرُ الْمُؤْمِنينَ ، ومِنْ حَوْلِهِ النّاسُ أَخَذوا مَجالِسَهُمْ في صَفَّيْنِ مُتَقابِلَيْنِ .

رَحَّبَ أَميرُ الْمُؤْمِنينَ « هِشامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ » بِوَفْدِ العِراقِ، وأَشارَ إِلَيْهِمْ بالجُلوسِ ، فَجَلَسوا حَيْثُ أَشارَ . وكانَ مِنْ بَيْنِهِمْ رَجُلٌ مَشْهودٌ لَهُ بالخَطابَةِ والبَلاغَةِ ، اسْمُهُ

«خالِدُ بْنُ صَفْوانَ» ، يَعْرِفُ «هِشام» عَنْهُ وَرَعَهُ وتَقْواهُ، وزُهْدَهُ وعِفَّتَهُ .

وأَخَذَ «خالِد» يُخْرِجُ رَأْسَهُ مِنْ بَيْنِ النّاسِ ، كَأَنَّما يُرِيدُ أَنْ يَراهُ أَميرُ الْمُؤْمِنينَ ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ «هِشام» نَظْرَةَ مُتَسائِلٍ عَمّا يُريدُ ، فَقالَ «خالِدٌ» :

«أَتَمَّ اللهُ عَلَيْكَ ، يا أَميرَ الْمُؤْمِنينَ نِعْمَتَهُ ، وأَسْبَغَ عَلَيْكَ فَضْلَهُ، وأَسْدَلَ عَلَيْكَ سِتْرَهُ ، وجَعَلَ هَذا الأَمْرَ الَّذي قَلَّدَكَ إِيّاهُ، ونَصَّبَكَ فيهِ – رُشْدًا وسَدادًا ، وجَعَلَ عاقِبَتَهُ حَمْدًا ورَشادًا ، وأَخْلَصَهُ لَكَ بالتُّقى والوَرَعِ ، وأَصْفاهُ لَكَ مِنْ كُلِّ كَدَرٍ، ونَقّاهُ مِنْ كُلِّ شائِبَةٍ ، وكَثَّرَهُ لَكَ بالنَّماءِ والبَرَكَةِ ؛ فَقَدْ أَصْبَحْتَ – بِحَمْدِ اللهِ – مَوْئِلَ النّاسِ ومَلاذَهُمْ ، إِلَيْكَ يَقْصِدونَ في أُمورِهِمْ، ويَفْزَعونَ في مُشْكِلاتِهِمْ .

«ولَكَ عَلَيَّ ، يا أَميرَ الْمُؤْمِنينَ ، حَقٌّ لا بُدَّ مِنْ قَضائِهِ، بَعْدَ أَنْ مَنَّ اللهُ عَلَيَّ بِمُجالَسَتِكَ، والقُرْبِ مِنْكَ .

ولا أَجِدُ سَبيلاً إِلى تَأْدِيَةِ هَذا الحَقِّ إِلَيْكَ ، إِلا بِأَنْ أُذَكِّرَكَ نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكَ ، و أُنَبِّهَكَ لِشُكْرِها ، وما أَجِدُ شَيْئًا أَبْلَغَ مِنْ حَديثِ مَنْ سَبَقَكَ مِنَ الْمُلوكِ ، فَإِنْ أَذِنْتَ لي أَخْبَرْتُكَ بِهِ . »

اعْتَدَلَ «هِشامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ» في مَجْلِسِهِ ، وبانَ عَلَيْهِ الجِدُّ والعَزْمُ ، وقالَ : «هاتِ ، يا خالِدُ ، ما عِنْدَكَ . »

خَيَّمَ الصَّمْتُ عَلى الْمَجْلِسِ ، ولَفَّهُ السُّكونُ ، ونَظَرَ الجَميعُ نَحْوَ «خالِدٍ» ، يَنْتَظِرونَ قَوْلَهُ ، وهُمْ يَتَوَقَّعونَ أَنْ يُفْسِدَ عَلَيْهِمْ مُتْعَتَهُمْ ، ويُبَدِّدَ بِقَوْلِهِ لَذَّتَهُمْ ، ويُحيلَ سُرورَهُمْ نَكَدًا و غَمّا . ولَكِنَّ أَحَدًا لا يَسْتَطيعُ التَّعْليقَ أَو الاعْتِراضَ؛ فَقَدْ أَذِنَ لَهُ «هِشامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ» بالحَديثِ .

وَقَفَ «خالِدٌ» في مَكانِهِ ، وقالَ في ثِقَةٍ واطْمِئْنانٍ ، وفي صَوْتٍ هادِئٍ واضِحٍ : «يا أَميرَ الْمُؤْمِنينَ ، إِنَّ مَلِكًا

مِنَ الْمُلوكِ قَبْلَكَ - مَنَحَهُ اللهُ الشَّبابَ والفَتاءَ والقُوَّةَ،
ومَكَّنَ لَهُ مِنْ أَعْدائِهِ بالغَلَبَةِ والنَّصْرِ ؛ فاتَّسَعَ مُلْكُهُ ، وواتَتْهُ
الدُّنْيا بزينَتِها ومالِها ، وذَهَبِها وفِضَّتِها - خَرَجَ في تَمامِ
عُدَّتِهِ و أُهْبَتِهِ و زينَتِهِ ، يُحيطُ بِهِ وزُراؤهُ وحاشِيَتُهُ ، إلى
قَصْرٍ مِنْ قُصورِهِ الْمُتَعَدِّدَةِ ، يَخْطَفُ الأَبْصارَ بِبَريقِ
حَوائِطِهِ ، ويَسْحَرُ الأَلْبابَ بِنُقوشِهِ وزينَتِهِ، فَلَمّا جَلَسَ
بَيْنَ أَصْحابِهِ نَظَرَ أَمامَهُ ، وأَبْعَدَ النَّظَرَ، ثُمَّ قالَ لِجُلَسائِهِ :
« هَلْ رَأى أَحَدٌ مِنْكُمْ مِثْلَ هَذا الَّذي أَنا فيهِ ؟ هَلْ أُعْطِيَ
أَحَدٌ مِثْلَ ما أُعْطيتُ ؟»

لَمْ يُحِرْ أَحَدٌ مِنَ الجالِسينَ جَوابًا ، ولَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ واحِدٌ
مِنْهُمْ ، وإنَّما سَرَتْ هَمْهَمَةٌ بَيْنَهُمْ ، لَمْ يَسْمَعْ أَحَدٌ
كَلِماتِها ، ولَمْ يَتَبَيَّنْ أَحَدٌ حُروفَها . وكانَ بَيْنَ الحاضِرينَ
رَجُلٌ آتاهُ اللهُ عِلْمًا وحِكْمَةً ، وأَلْزَمَهُ كَلِمَةَ الحَقِّ والتَّقْوى ؛
فَهُوَ لا يَحيدُ عَنْها ، ولا يَخْشى في قَوْلِها لَوْمَةَ لائِمٍ .
نَهَضَ هَذا الرَّجُلُ مِنْ مَجْلِسِهِ ، وقالَ : « أَيُّها الْمَلِكُ،

سَأَلْتَ عَنْ أَمْرٍ خَطيرٍ ، فَهَلْ تَأْذَنُ لي في أَنْ أُجيبَكَ عَنْ
سُؤالِكَ ؟ »

قالَ الْمَلِكُ ، والعُجْبُ يَأْخُذُهُ مِنْ كُلِّ جانِبٍ ،
والغُرورُ يَمْلِكُ عَلَيْهِ نَفْسَهُ : « حُبًّا وكَرامَةً ! أَسْمِعْني
الجَوابَ ، فَقَدْ عَيِيَ الجَميعُ ، ولَمْ يَسْتَطيعوا جَوابًا . »

قالَ الرَّجُلُ : « أَخْبِرْني - أَيُّها الْمَلِكُ - عَنْ هَذا
الْمُلْكِ الكَبيرِ ، والسُّلْطانِ الواسِعِ ، والجاهِ العَريضِ ،
الَّذي أَنْتَ فيهِ . هَلْ هُوَ شَيْءٌ خالِدٌ باقٍ لا يَزولُ عَنْكَ ،
ولا تَزولُ عَنْهُ طولَ الزَّمَنِ أَمْ هُوَ شَيْءٌ صارَ إِلَيْكَ بالميراثِ
عَنْ آبائِكَ، وسَيَزولُ عَنْكَ غَدًا ، ويَصيرُ إلى غَيْرِكَ ،
كَما زالَ عَنْهُمْ ، وصارَ إِلَيْكَ ؟»

قالَ الْمَلِكُ ، وقَدْ أَمَضَّهُ الجَوابُ وأَحْزَنَهُ ، وأَثارَ
تَفْكيرَهُ وأَوْجَعَهُ : « هُوَ كَما قُلْتَ ! »

قالَ الرَّجُلُ : « إذًا فَقَدْ أُعْجِبْتَ - أَيُّها الْمَلِكُ - بِشَيْءٍ
هَيِّنٍ يَسيرٍ ، تُوجَدُ فيهِ زَمَنًا قَليلاً ، ثُمَّ يَغيبُ عَنْكَ زَمَنًا

طَويلاً ، وسَتُحاسَبُ عَلى ما صَنَعْتَ بِهِ ، وصَنَعْتَ فيهِ . »

قالَ الْمَلِكُ ، وقَدْ زالَ غُرورُهُ ، وتَطامَنَتْ كِبْرِياؤُهُ : « وَيْحَكَ ! فَأَيْنَ الْمَهْرَبُ ؟ وماذا أَصْنَعُ ؟ »

قالَ الرَّجُلُ : « أَمامَكَ – أَيُّها الْمَلِكُ – طَريقانِ ، عَلَيْكَ أَنْ تَخْتارَ مِنْهُما الطَّريقَ الَّتي تَروقُ لَكَ : إِمّا أَنْ تَظَلَّ فيما أَنْتَ فيهِ مِنَ الْمُلْكِ والسُّلْطانِ ، وتُقيمَ الحَقَّ بَيْنَ النّاسِ ، وتُرْسِيَ قَواعِدَ العَدْلِ ، وتَعْمَلَ فيهِمْ بِطاعَةِ رَبِّكَ ، فَتُنْصِفَ الْمَظْلومَ ، وتَرْفَعَ القَهْرَ عَنِ الْمَقْهورِ ، وتُعيدَ لِلضَّعيفِ حَقَّهُ ، وتَمْسَحَ دُموعَ اليَتامى والبائِسينَ ، وتَحْنُوَ عَلى الضُّعَفاءِ والْمَساكينِ . وإِمّا أَنْ تَخْلَعَ تاجَكَ ، وتَتَخَلّى عَنْ عَرْشِكَ ، وتَتوبَ إِلى رَبِّكَ ، وتَعْبُدَهُ حَتّى يَأْتِيَكَ الْمَوْتُ ! »

قالَ الْمَلِكُ – وقَدْ غَلَبَهُ الأَسى – : « إِذا كانَ وَقْتُ السَّحَرِ فاقْرَعْ عَلَيَّ بابي ، وسَأَكونُ قَدِ اخْتَرْتُ إِحْدى

الطَّريقَيْنِ ، فَإِنِ اخْتَرْتُ الْمُلْكَ والسُّلْطانَ فَسَتَكونُ لي وَزيرًا لا يُعْصى ، ومُشيرًا لا يُخالَفُ . وإِنِ اخْتَرْتُ الطَّريقَ الأُخْرى كُنْتَ لي رَفيقًا ومُعينًا . »

« فَلَمّا مَضى أَكْثَرُ اللَّيْلِ ، وجاءَ وَقْتُ السَّحَرِ – طَرَقَ الرَّجُلُ بابَ الْمَلِكِ ، فَإِذا هُوَ قَدْ خَلَعَ تاجَهُ ، وتَخَلّى عَنْ مُلْكِهِ وسُلْطانِهِ وخَلَعَ ثِيابَهُ الْمُوَشّاةَ الزّاهِيَةَ ، وارْتَدى ثِيابًا زَهيدَةَ الثَّمَنِ ، تُشْبِهُ ثِيابَ عامَّةِ النّاسِ ، لا يَتَمَيَّزُ فيها عَنْ فُقَراءِ شَعْبِهِ ، وتَهَيَّأَ لِلخُروجِ مِنْ قَصْرِهِ . فَخَرَجا مَعًا ، ولَزِما الجَبَلَ ، يَعْبُدانِ اللهَ ، ويَأْكُلانِ مِنْ عَمَلِ أَيْديهِما ، مِمّا تَجودُ بِهِ الأَرْضُ عَلَيْهِما . وظَلّا كَذَلِكَ حَتّى وافَتْهُما الْمَنِيَّةُ . »

ما إِنْ فَرَغَ « خالِدٌ » مِنْ حَديثِهِ ، وعادَ إِلى مَجْلِسِهِ – حَتّى بَكى « هِشامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ » بُكاءً شَديدًا ، وانْهَمَرَتْ دُموعُهُ غَزيرَةً ، بَلَّلَتْ لِحْيَتَهُ وعِمامَتَهُ . وإِذا هُوَ يَأْمُرُ خَدَمَهُ بِنَزْعِ السُّرادِقِ ، وطَيِّ الفُرُشِ والبُسُطِ ،

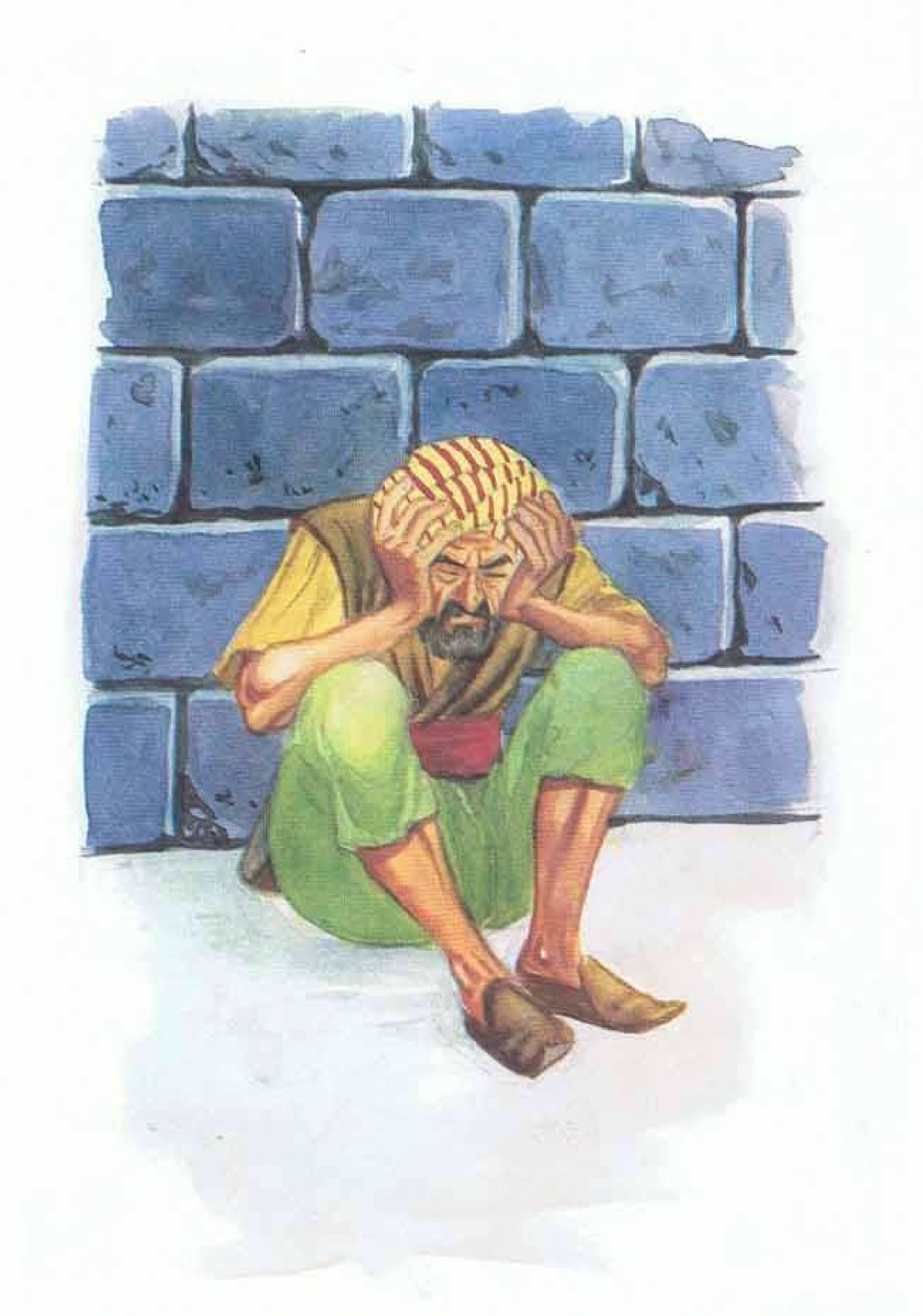
ويَعودُ إلى قَصْرِهِ في مَدينَةِ دِمَشْقَ فَيَلْزَمُهُ !

ولَكِنَّ الجُلَساءَ والحاشِيَةَ لَمْ يُعْجِبْهُمْ حَديثُ « خالِد » ولا مَوْقِفُهُ ، فَأَقْبَلوا عَلَيْهِ ضائِقينَ مُؤَنِّبينَ ، يَقولونَ لَهُ : « لَقَدْ أَفْسَدْتَ عَلى أَميرِ المُؤْمِنينَ مُتْعَتَهُ ، ونَغَّصْتَ عَلَيْهِ لَذَّتَهُ . » و« خالد » يَدْفَعُهُمْ عَنْهُ ، ويُزيحُهُمْ مِنْ طَريقِهِ ، ويَقولُ لَهُمْ : « إِلَيْكُمْ عَنّي . فَقَدْ عاهَدْتُ اللهَ - عَزَّ و جَلَّ - أَلا أَجْلِسَ إلى مَلِكٍ ، أَوْ أَخْلُوَ إِلَيْهِ إلا ذَكَّرْتُهُ بِنِعْمَةِ اللهِ عَلَيْهِ . »

العَطّارُ والعِقْدُ

كانَتِ الدَّوْلَةُ العَرَبِيَّةُ الإِسْلامِيَّةُ واسِعَةَ الأَرْجاءِ ، مُتَباعِدَةَ الأَنْحاءِ ، مُتَرامِيَةَ الأَطْرافِ ، وكانَ النّاسُ يَنْتَقِلونَ بَيْنَ أَرْجائِها الواسِعَةِ ، وفي أَنْحائِها المُخْتَلِفَةِ دونَ حَرَجٍ ، لا يَحْتاجونَ إِلى تَصْريحٍ بِالخُروجِ ، ولا إِلى إِذْنٍ بِالدُّخولِ .

وكانَ مَوْسِمُ الحَجِّ أَكْثَرَ الأَوْقاتِ حَرَكَةً ، وأَعْظَمَها نَشاطًا ، وأَشَدَّها عَزْمًا ؛ حَيْثُ يَتَجَهَّزُ القاصِدونَ إِلى البَيْتِ العَتيقِ في مَكَّةَ ، ويَتَّخِذونَ أُهْبَةَ السَّفَرِ ، الَّذي قَدْ يَسْتَغْرِقُ شُهورًا طَويلَةً ، أَوْ سَنَواتٍ في بَعْضِ الأَحْيانِ ؛ إِذْ لَمْ تَكُنْ لَدَيْهِمْ وَسائِلُ المُواصَلاتِ الَّتي تَطْوي الأَرْضَ طَيًّا ، أَوْ تَمْخَرُ عُبابَ البَحْرِ كالحيتانِ ، أَوْ تَجوزُ الفَضاءَ



كالطُّيور ؛ فلا يَجدُ الْمُسافِرُ عَنَتًا ، ولا يُحِسُّ رَهَقًا ، وإنَّما كانَتْ لَدَيْهِمُ الإبِلُ والدَّوابُّ ، وكانَ السَّفَرُ كَما صَوَّروهُ - قِطْعَةً مِنَ العَذابِ .

وفي أَحَدِ الْمَواسِمِ مَرَّ رَجُلٌ مِنْ خُراسانَ بِمَدينةِ بَغْدادَ ، في طَريقِهِ إلى الحَجِّ ، وكانَ في حَوْزَتِهِ عِقْدٌ ثَمينٌ ، يُجاوِزُ ثَمَنُهُ الألْفَ دينار .

ولَمّا أَعْوَزَتْهُ النَّفَقَةُ سَعى إلى السّوقِ يَنْشُدُ بَيْعَهُ ، واجْتَهَدَ في ذَلِكَ فَلَمْ يُوَفَّقْ ، ولَمْ يُقْبِلْ أَحَدٌ عَلى شِرائِهِ ، فَتَحَسَّرَ الرَّجُلُ عَلى حالِهِ ؛ فَقَدْ كانَ يُريدُ العِقْدَ عَونًا لَهُ ، فإذا هُوَ عِبْءٌ باهِظٌ عَلى كَتِفَيْهِ ، وحِمْلٌ ثَقيلٌ يَوَدُّ لَوْ حَطَّهُ عَنْهُ . إنَّهُ يَخْشى أَنْ يُفاجِئَهُ اللُّصوصُ فَيَسْرِقوهُ ، أَوْ يُباغِتَهُ قُطّاعُ الطَّريقِ فَيَنْتَهِبوهُ ! والطَّريقُ ما زالَ طَويلاً ، والْمَسافَةُ ما زالَتْ شاسِعَةً .

وتَحَيَّرَ في أَمْرِهِ حَيْرَةً بالِغَةً ، لَقَدْ أُخِذَتْ عَلَيْهِ أَفْواهُ السُّبُلِ ، وسُدَّتْ أَمامَهُ مَسالِكُ الطُّرُقِ ؛ فانْتَحى رُكْنًا قَصِيًّا في السّوقِ ، وجَلَسَ مُسْنِدًا رَأْسَهُ بِيَدَيْهِ ، والقَلَقُ

يَعْصِفُ بِهِ عَصْفًا شَديدًا . بَيْنَما هُوَ كَذَلِكَ إذا رَجُلٌ يَقِفُ
عَلَيْهِ ، وَيَرِقُّ لَهُ ، وَيَسْأَلُهُ عَنْ أَمْرِهِ ، فَيَقُصُّ عَلَيْهِ قِصَّتَهُ ،
وَيُبْدي لَهُ مَخاوِفَهُ ، فَيُشيرُ عَلَيْهِ الرَّجُلُ بِأَنْ يُودِعَ عِقْدَهُ
عِنْدَ ذَلِكَ الرَّجُلِ العَطّارِ ؛ فَهُوَ رَجُلٌ مَعْروفٌ بَيْنَ أَهْلِ
السّوقِ بِحِفْظِهِ للأَمانَةِ ، مَشْهودٌ لَهُ بِحُسْنِ وَفائِهِ .

مَضى الرَّجُلُ الخُراسانِيُّ إلى العَطّارِ ، فَوَجَدَهُ رَجُلاً
وَقورًا ، يَحُفُّهُ جَلالُ السَّكينَةِ ، وَثَباتُ الطُّمَأْنينَةِ ،
فَعَرَضَ عَلَيْهِ وَديعَتَهُ ، فَقَبِلَها ، و وَضَعَها في جَرَّةٍ كانَتْ
عِنْدَهُ .

أَدّى الرَّجُلُ الخُراسانِيُّ فَريضَةَ الحَجِّ ، ثُمَّ عادَ إلى
بَغْدادَ في طَريقِهِ إلى خُراسانَ ، وَذَهَبَ إلى العَطّارِ يَسْتَرِدُّ
وَديعَتَهُ ، وَقَدْ أَحْضَرَ لَهُ هَدِيَّةً مِنْ مَكَّةَ . وَلَكِنَّ العَطّارَ
انْقَلَبَتْ سَحْنَتُهُ ، وَرَفَسَهُ رَفْسَةً قَوِيَّةً ، وَأَنْكَرَ مَعْرِفَتَهُ بِهِ ،
وَأَنْ تَكونَ لَهُ أَمانَةٌ لَدَيْهِ ، وانْتَهَرَهُ وَرَماهُ بَعيدًا عَنْ دُكّانِهِ ،
وَهُوَ يَصيحُ بِهِ :

« كَيْفَ تَدَّعي عَلَيَّ هَذِهِ الدَّعْوى ؟ »

واجْتَمَعَ أَهْلُ السّوقِ لِيَعْرِفوا سَبَبَ هَذا الصِّياحِ ،
وَلِماذا هاجَ العَطّارُ الطَّيِّبُ هَذا الهِياجَ العَنيفَ ؟ وَمَنْ هَذا
الرَّجُلُ الَّذي يَنْهَرُهُ العَطّارُ وَيَزْجُرُهُ ؟ فَلَمّا عَرَفوا قالوا
لِلرَّجُلِ الخُراسانِيِّ : « أَ ما وَجَدْتَ غَيْرَ هَذا الرَّجُلِ الخَيِّرِ
تَدَّعي عَلَيْهِ مِثْلَ هَذِهِ الدَّعْوى ؟ »

خَرَجَ الرَّجُلُ الخُراسانِيُّ مَخْذولاً مَدْحورًا ؛ فَقَدْ أَجْمَعَ
النّاسُ عَلى تَكْذيبِهِ ، وَفَقَدَ عِقْدَهُ الثَّمينَ ، وَلَمْ يَنَلْ غَيْرَ
هَذِهِ الرَّفْسَةِ القَوِيَّةِ الَّتي أَصابَتْهُ مِنَ العَطّارِ ، واللَّعَناتِ
الَّتي شَيَّعَهُ بِها أَهْلُ السُّوقِ ؛ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَيْئَسْ ، أَوْ لَعَلَّ
حِرْصَهُ عَلى عِقْدِهِ ، وَرَغْبَتَهُ في إِظْهارِ بَراءَتِهِ كانا الدّافِعَ
وَراءَ تَرَدُّدِهِ عَلى العَطّارِ ، وَتَكْرارِهِ طَلَبَ وَديعَتِهِ . وَفي
كُلِّ مَرَّةٍ كانَ العَطّارُ يَزْجُرُهُ وَيَسُبُّهُ ، وَكَثيرًا ما كانَتْ تَطولُهُ
لَكْمَةٌ أَوْ رَفْسَةٌ ، وَدائِمًا كانَتْ تُشَيِّعُهُ لَعْنَةٌ .

طالَ تَرَدُّدُهُ على العَطّارِ ، وَطالَ ضَرْبُهُ وَشَتْمُهُ ، فَأَشارَ

عَلَيْهِ واحِدٌ مِنْ أَهْلِ السّوقِ أَنْ يَرْفَعَ أَمْرَهُ إلى الوَزيرِ ؛ فَلَهُ في مِثْلِ هَذِهِ الْمُشْكِلاتِ فِراسَةٌ صادِقَةٌ ، وذَكاءٌ مُتَوَقِّدٌ ، ولَمّاحِيَةٌ شَفّافَةٌ . صَدَّقَ الرَّجُلُ الخُراسانِيُّ النَّصيحَةَ ، وأَسْرَعَ إلى قَلَمٍ وقِرْطاسٍ ، فَكَتَبَ الواقِعَةَ بِتَفاصيلِها ، وانْطَلَقَ يَعْدو إلى دارِ الوَزيرِ ، فَعَرَضَ الرُّقْعَةَ عَلَيْهِ .

قَرَأَ الوَزيرُ الرُّقْعَةَ ، فابْتَسَمَ ابْتِسامَةً خَفيفَةً ، وتَفَرَّسَ في وَجْهِ الرَّجُلِ الخُراسانِيِّ ، ثُمَّ قالَ لَهُ : « اذْهَبْ إلى دُكّانِ العَطّارِ ، واجْلِسْ عَلى دَكَّتِهِ ثَلاثَةَ أَيّامٍ كامِلَةٍ ، ولا تُكَلِّمْهُ ، ولا تَتَحَدَّثْ إلى أَحَدٍ مِمَّنْ حَوْلَهُ ، فَإِنْ مَنَعَكَ مِنَ الجُلوسِ عَلى دَكَّتِهِ فاجْلِسْ قُبالَتَهُ ، وفي اليَوْمِ الرّابِعِ سَأَمُرُّ مِنْ أَمامِكَ ، فلا تَقِفْ لي ، ورُدَّ عَلَيَّ السَّلامَ و أَنْتَ جالِسٌ في مَكانِكَ ، وسَأُلْقي عَلَيْكَ بَعْضَ الأَسْئِلَةِ فَأَجِبْ عَلَيْها وأَنْتَ جالِسٌ بِغَمْغَمَةٍ لا تَكادُ تَبينُ . وحينَ أَنْصَرِفُ عَنْكَ أَعِدْ عَلى العَطّارِ ذِكْرَ عِقْدِكَ ، ثُمَّ أَعْلِمْني ما يَقولُ لَكَ ، وإِنْ أَعْطاكَ عِقْدَكَ فَأَحْضِرْهُ إِلَيَّ . »

انْصَرَفَ الرَّجُلُ الخُراسانِيُّ مِنْ حَضْرَةِ الوَزيرِ ، وهُوَ لا يَدْري ماذا يَفْعَلُ . لَقَدْ أَخَذَ يُكَلِّمُ نَفْسَهُ ، وكَأَنَّهُ يَهْذي : « إِنَّ الوَزيرَ لَمْ يَسْتَدْعِ خَصْمَهُ ، ولَمْ يُحَقِّقْ في أَمْرِهِ ، وكُلُّ ما أَمَرَني بِهِ أَنْ أَجْلِسَ عَلى دَكَّةِ العَطّارِ أَوْ قُبالَتَهُ ثَلاثَةَ أَيّامٍ ، لا أُكَلِّمُهُ ولا أُكَلِّمُ أَحَدًا مِنَ الخَلْقِ . ما هَذا ؟ لَعَلَّ الوَزيرَ يُريدُ أَنْ يَسْخَرَ مِنّي ، أَوْ يَتَهَكَّمَ عَلَيَّ ، أَوْ يَتَّخِذَ مِنّي مَثارًا لِلفُكاهَةِ . لا داعِيَ لأَنْ أَجْلِسَ ، ولأَتْرُكِ العِقْدَ يَذْهَبُ إلى حالِ سَبيلِهِ ، ولأَشُدَّ رِحالي إلى بَلَدي . ماذا يَقولُ عَنّي النّاسُ مَتى رَأَوْني جالِسًا عَلى الدَّكَّةِ الخَشَبِيَّةِ صامِتًا ، كَأَنّي قَدْ غَدَوْتُ قِطْعَةً مِنْها ، أَوْ مِسْمارًا فيها ؟ لا ، لا فَلأُغادِرْ هَذِهِ الْمَدينَةَ ، ولأَتَّخِذْ طَريقي إلى خُراسانَ . ولَكِنْ كَيْفَ لا أَفي بِوَعْدي لِلوَزيرِ ؟ لَقَدْ وَعَدْتُهُ أَنْ أُنَفِّذَ أَمْرَهُ ، ولِماذا لا أُنَفِّذُهُ ؟ قَدْ يَكونُ رَجُلاً ذا بَصيرَةٍ ثاقِبَةٍ ، وإِدْراكٍ نافِذٍ ، وقَدْ تَكونُ لَدَيْهِ الحيلَةُ الواسِعَةُ الماكِرَةُ الَّتي تَكْشِفُ ما يُخَبِّئُهُ العَطّارُ . لَقَدْ أَوْقَعَني ذَلِكَ الْمُشيرُ في حَيْرَةٍ أَرْبَكَتْ عَقْلي إِرْباكًا فَظيعًا . »

لَبثَ الرَّجُلُ الخُراسانِيُّ طولَ اللَّيلِ ساهِرًا يَتقَلَّبُ ، حَتّى إذا غَلَبَهُ النُّعاسُ هَبَّ مَذْعورًا ، والفِكْرَةُ تَمْلأُ رَأْسَهُ، وتَطِنُّ في أُذُنَيْهِ طَنينًا مُزْعِجًا ، وتَذودُ عَنْهُ النَّوْمَ ذَودًا غَيْرَ رَفيقٍ ، وتَنْهَبُ عَقْلَهُ وتَدُقُّهُ دَقًا غَيْرَ رَقيقٍ ، وهُوَ حائِرٌ لا يَدْري ماذا يَفْعَلُ ؟

أَشْرَقَ الفَجْرُ ولاحَتْ أَنوارُهُ ، وطَرَدَتْ فُلولَ الظَّلامِ ، فَنَهَضَ الرَّجُلُ الخُراسانِيُّ وأَسْبَغَ وُضوءَهُ ، و وَقَفَ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهِ خاشِعًا مُتَضَرِّعًا . وما إنْ قَضى صَلاتَهُ حَتّى سَكَنَتْ نَفْسُهُ ، وبَرَقَتْ أَساريرُ وَجْهِهِ ، واسْتَضاءَ ذِهْنُهُ، واسْتَراحَ عَقْلُهُ إلى أَنْ يُنَفِّذَ ما أَمَرَهُ بِهِ الوَزيرُ . فَخَرَجَ إلى دُكّانِ العَطّارِ ، وأَرادَ الجُلوسَ عَلى دَكَّتِهِ ، فَمَنَعَهُ العَطّارُ وسَبَّهُ ، فَجَلَسَ عَلى دَكَّةٍ تُقابِلُهُ. وظَلَّ عَلى حالِهِ هٰذِهِ ثَلاثَةَ أَيّامٍ ، والنّاسُ يَمُرّونَ بِهِ ، ويَنْظُرونَ إلَيْهِ، ويَعْجَبونَ مِنْهُ .

وفي اليَوْمِ الرّابِعِ مَرَّ الوَزيرُ في مَوْكِبٍ عَظيمٍ ، فَما إنْ

وَقَعَ بَصَرُهُ عَلى الرَّجُلِ الخُراسانِيِّ - حَتّى وَقَفَ ، فَوَقَفَ العَسْكَرُ ، وقالَ لِلخُراسانِيِّ : « السَّلامُ عَلَيْكُمْ . » فَلَمْ يَزِدِ الخُراسانِيُّ عَنْ رَدِّ السَّلامِ بِقَوْلِهِ : « وَعَلَيْكُمُ السَّلامُ . »

قالَ الوَزيرُ : « يا أَخي ، تَقْدَمُ بَغْدادَ فلا تَسْعى لِزيارَتِنا ، وعَرْضِ حاجَتِكَ عَلَيْنا ؟ »

فَقالَ الرَّجُلُ الخُراسانِيُّ كَلامًا كَيْفَما اتُّفِقَ ، في غَمْغَمَةٍ لا تَكادُ تَبينُ ، والوَزيرُ يَسْأَلُهُ ، ويُعيدُ السُّؤالَ و يُرَدِّدُهُ ، والمَوْكِبُ كُلُّهُ واقِفٌ بِوُقوفِ الوَزيرِ ، والخُراسانِيُّ جالِسٌ لَمْ يَقِفْ ، وكَأَنَّ الأُلْفَةَ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ قَدْ نَمَتْ حَتّى رَفَعَتِ الكُلْفَةَ ، وأَزالَتِ الحَرَجَ ، والعَطّارُ يَرى ذَلِكَ فَيَقَعُ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ !

فَلَمّا انْصَرَفَ الوَزيرُ ومَوْكِبُهُ ، وأَفاقَ العَطّارُ مِنْ غَشْيَتِهِ ، أَسْرَعَ يَتَلَطَّفُ إلى الرَّجُلِ الخُراسانِيِّ ، ويَتَقَرَّبُ مِنْهُ ، ويَقولُ لَهُ : « وَيْحَكَ يا رَجُلُ ! مَتّى أَوْدَعْتَني العِقْدَ ؟ وفي أَيِّ شَيْءٍ كانَ مَلفوفًا ؟ ذَكِّرْني بِأَمْرِهِ و وَصْفِهِ ، لَعَلّي



أَتذكَّرُهُ ، وأتذكَّرُ المَكانَ الَّذي وَضعْتُهُ فيهِ . »

فَراحَ الخُراسانِيُّ يُذَكِّرُهُ اليَوْمَ الَّذي أَعْطاهُ فيهِ العِقْدَ ، ويُبيِّنُ لَهُ أَوْصافَهُ . وحينَئِذٍ صاحَ العَطّارُ : « تَذكَّرْتُه ! تَذكَّرْتُهُ ! إِنَّهُ في هَذهِ الجَرَّةِ ! »

ثُمَّ أَدْخَلَ يَدَهُ فيها ، وأَخْرَجَها والعِقْدُ يَمْلأُ راحَتَها ، فَقَدَّمَهُ لِصاحِبِهِ ، وهُوَ يَقولُ في تَلَعْثُمٍ و اضْطِرابٍ : « أ رَأَيْتَ ؟ لَقَدْ أَنستني زَحْمَةُ الحَياةِ ، وشَواغِلُ التِّجارَةِ عِقْدَكَ ، ولَوْلا أَنَّكَ ذَكَّرْتَني ما تَذكَّرْتُ . خُذْ عِقْدَكَ ، يا سَيِّدي ، وَتَذكَّرْ أَنَّني طَوْعُ أَمْرِكَ ، ورَهْنُ إِشارَتِكَ في كُلِّ ما تَرْغَبُ فيهِ وتُريدُ . »

أَخَذَ الرَّجُلُ الخُراسانِيُّ عِقْدَهُ ، وهُوَ لا يَكادُ يُصَدِّقُ هَذِهِ الحيلَةَ البارِعَةَ الَّتي كَشَفَ بِها الوَزيرُ خِداعَ العَطّارِ وخِيانَتَهُ ، وأَعادَ لَهُ حَقَّهُ و وَديعَتَهُ . ثُمَّ حَدَّثَ نَفْسَهُ بِقَوْلِهِ : « أَيُّ فائِدَةٍ في أَنْ أَذْهَبَ إلى الوَزيرِ ، وأُعْلِمَهُ بِما تَمَّ ؟ لَعَلَّهُ يَرى العِقْدَ ويَروقُهُ فَيَشْتَرِيَهُ ! »

ذَهَبَ الرَّجُلُ الخُراسانِيُّ إلى دارِ الوَزير ، وأَعْلَمَهُ بما حَدَثَ ، فَنادى الوَزيرُ حاجِبَهُ ، وأَمَرَهُ أَنْ يَذْهَبَ مَعَ الخُراسانِيِّ إلى دُكّانِ العَطّارِ ؛ والخُراسانِيُّ لا يَعْرِفُ سَبَبًا لِلذَّهابِ إلى دُكّانِ العَطّار ، ولا يَرى فائِدَةً مِنْهُ ، ولَكِنَّهُ يَسيرُ في صُحْبَةِ الحاجِبِ كَما أَمَرَ الوَزيرُ .

وَصَلَ الحاجِبُ إلى دُكّانِ العَطّار ، فَأَخَذَ العِقْدَ مِنَ الخُراسانِيِّ ، وعَلَّقَهُ في عُنُقِ العَطّارِ ، ثُمَّ عَلَّقَ العَطّارَ عَلى بابِ دُكّانِهِ ، ونادى المُنادي في أَهْلِ السّوقِ : « هَذا جَزاءُ مَنِ اسْتُودِعَ فَجَحَدَ و أَنْكَرَ . »

فَلَمّا أَخَذَتِ الشَّمْسُ تُلَمْلِمُ ثِيابَها ، وتَجْمَعُ أَذْيالَها ، وتَذْهَبُ إلى مَنامِها – رَفَعَ الحاجِبُ العِقْدَ مِنْ عُنُقِ العَطّارِ ، ثُمَّ رَدَّهُ إلى الخُراسانِيِّ وقالَ لَهُ :

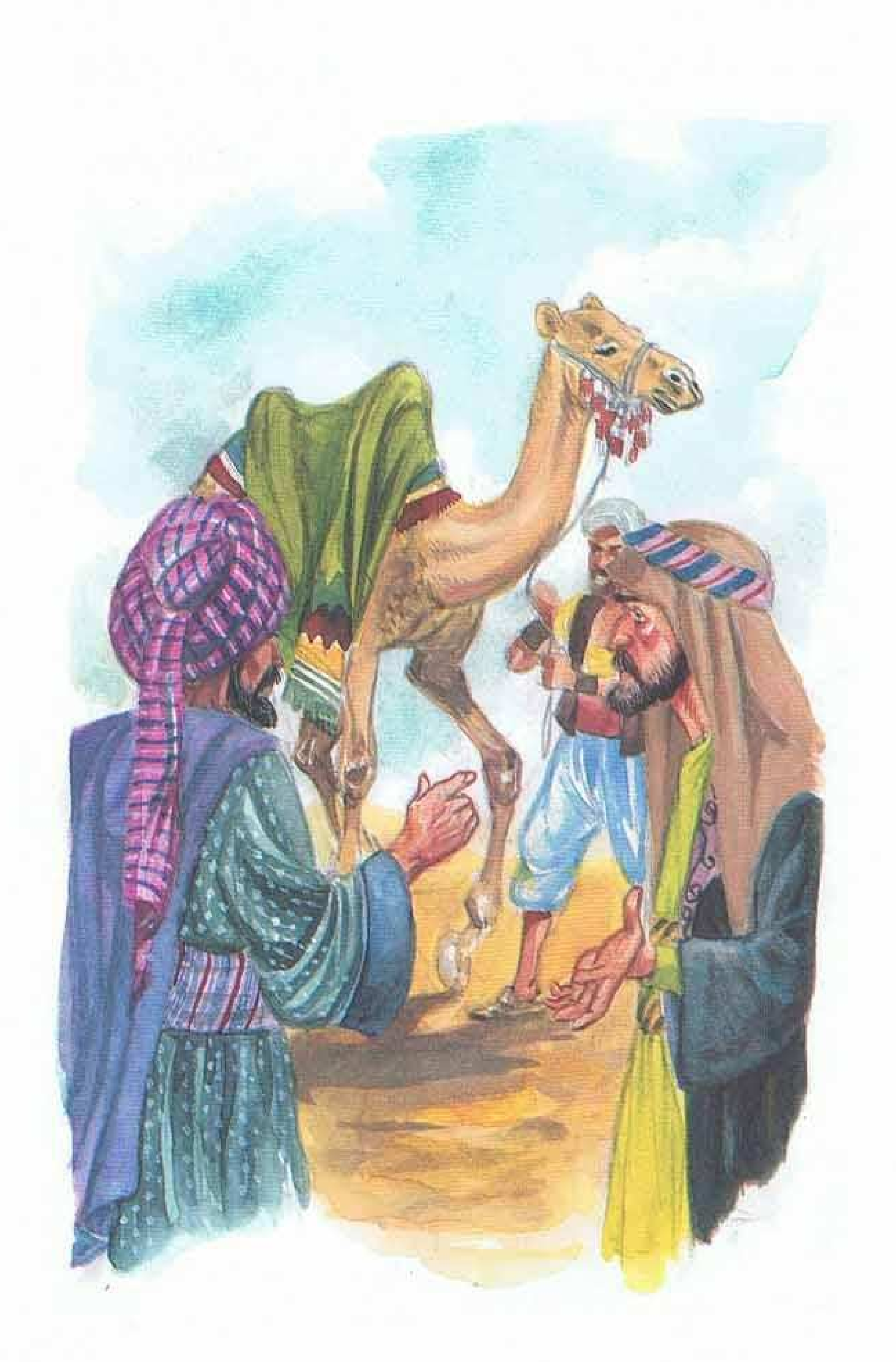
« اذْهَبْ بِعِقْدِكَ ، بارَكَ اللهُ لَكَ فيهِ ! »

لَباقَةُ شاعِرٍ

« مُحَمَّدُ بْنُ أَيّوب » والي البَصْرَةِ في زَمَنِ المَأْمونِ – رَجُلٌ مَنَحَهُ اللهُ بَسْطَةً في الجِسْمِ ، وجَمالاً في الطَّبْعِ ، وخِفَّةً في الرّوحِ ، ومَيْلاً إلى الدُّعابَةِ ، ونَشاطًا إلى المَرَحِ مَعَ الحِفاظِ عَلى المُروءَةِ الَّتي تَليقُ بالوُلاةِ ، والوَقارِ الَّذي يَكْفُلُ الهَيْبَةَ و الإِجْلالَ .

وكانَ يَأْنَسُ إلى شاعِرٍ مِنْ بَني تَميم ، يَسْتَحْلي شِعْرَهُ ، ويَسْتَظْرِفُ نَوادِرَهُ ، ويَعْجَبُ بِبَداهَتِهِ ولَباقَتِهِ ، ويَميلُ إلى مُداعَبَتِهِ ، مَعَ ما يَعْرِفُهُ مِنْ مَكْرِهِ وخُبْثِهِ ، وخِداعِهِ وخَتْلِهِ .

أَرادَ الوالي يَوْمًا أَنْ يَمْكُرَ بالشّاعِرِ مَكْرًا خَفيفًا ، وأَنْ يُوقِفَهُ مَوْقِفًا طَريفًا ، فَقالَ لَهُ : « أَنْتَ شاعِرٌ ظَريفٌ ، لَكَ شِعْرٌ رائِقٌ طَريفٌ ، والمَأْمونُ رَجُلٌ كَريمٌ جَوادٌ ، لا يُدانيهِ



في جودِهِ وكَرَمِهِ السَّحابُ الحافِلُ بالماءِ ، ولا تُضارِعُهُ الرّيحُ المُرْسَلَةُ العاصِفَةُ - فَما الَّذي يَمْنَعُكَ مِنَ القُدومِ عَلَيْهِ في بَغْدادَ ، والإنْشادِ بَيْنَ يَدَيْهِ ؛ لَعَلَّ شِعْرَكَ يَروقُهُ ، ويُرْضي ذَوقَهُ؛ فَتَفوزَ فَوْزًا عَظيمًا ، وتَظْفَرَ مِنْهُ بِجائِزَةٍ سَنِيَّةٍ ، وعَطِيَّةٍ هَنِيَّةٍ .

قالَ الشّاعِرُ : « أَحْسَنْتَ القَوْلَ ، أَيُّها الوالي ، وأَصَبْتَ . وما يَمْنَعُني مِنَ الشُّخوصِ إلى المَأمونِ والقدومِ عَلَيْهِ ، هُوَ أَنَّهُ لَيْسَ عِنْدي ما يَحْمِلُني إلَيْهِ . »

قالَ الوالي : « أنا أَكْفيكَ مَئونَةَ السَّفَرِ ، وسَأُعْطيكَ بَعيرًا شابًا قَوِيًا ، ونَفَقَةً سابِغَةً ، وتَسْعى إلَيْهِ ، فَإِنْ ظَفِرْتَ بِلِقائِهِ ، وحُزْتَ بِشِعْرِكَ رِضاءَهُ - تَحَقَّقَتْ لَكَ كُلُّ آمالِكَ ، وحَظيتَ بِكُلِّ أُمْنِيّاتِكَ . »

قالَ الشّاعِرُ : « ما عَدَوْتَ الحَقَّ أَيُّها الوالي ، وما جاوَزْتَ الصَّوابَ ، فَأَعِدَّ لي ما ذَكَرْتَ . »

نادى الوالي بَعْضَ أَعْوانِهِ ، وأَمَرَهُمْ أَنْ يُحْضِروا بَعيرًا قَوِيًا نَشيطًا فارِهًا ، وقالَ لِلشّاعِرِ : « هاكَ البَعيرَ النَّجيبَ

فامْتَطِهِ و اذْهَبْ . »

قالَ الشّاعِرُ : « هَذِهِ إِحْدى الحُسْنَيَيْنِ ، فَأَيْنَ الأُخْرى ؟»

وفَهِمَ الوالي أَنَّ الشّاعِرَ يُرِيدُ النَّفَقَةَ السّابِغَةَ الَّتي وَعَدَهُ بِها ، فأَمَرَ لَهُ بِثَلاثِمائَةِ دِرْهَمٍ ، وقالَ لَهُ : « وهَذِهِ نَفَقَتُكَ . »

قالَ الشّاعِرُ في خُبْثٍ : « أَظُنُّكَ أَيُّها الأَميرُ ، قَدْ قَصَّرْتَ في النَّفَقَةِ . »

قالَ الوالي : « لا ، هِيَ كافِيَةٌ لَكَ إِنْ لَمْ تُسْرِفْ في الإِنْفاقِ ، ولَزِمْتَ الاعْتِدالَ . »

قالَ الشّاعِرُ في دُعابَةٍ : « ومَتّى أَسْرَفَ الأَكابِرُ والأَغْنِياءُ مِنْ بَني سَعْدٍ (يَقْصِدُ قَوْمَهُ) حَتّى يُسْرِفَ أَصاغِرُها و فُقَراؤُها ؟»

وأَخَذَ الشّاعِرُ البَعيرَ النَّجيبَ ، والنَّفَقَةَ السّابِغَةَ ، وصَنَعَ أُرْجوزَةً لَيْسَتْ بالطَّويلَةِ ولا بالقَصيرَةِ ، وجاءَ إِلى الوالي « مُحَمَّدِ بْنِ أَيّوب » يُطْلِعُهُ عَلَيْها ، ويَسْتَأْذِنُهُ في

السَّفَرِ إِلى بَغْدادَ لِيَحْظى بِلِقاءِ المَأْمونِ .

اسْتَمَعَ الوالي « مُحَمَّدُ بْنُ أَيّوب » إِلى الأُرْجوزَةِ ، فَلَمْ يَجِدْ فيها ذِكْرًا لَهُ ، ولاثَناءً عَلَيْهِ ، فَقالَ لَهُ : « ما صَنَعْتَ شَيْئًا ذا قيمَةٍ . »

قالَ الشّاعِرُ : « كَيْفَ ذَلِكَ أَيُّها الوالي ؟ لَقَدْ سَهِرْتُ لَيلي ، وكَدَدْتُ ذِهْني ، وأَنْضَيْتُ قَريحَتي حَتّى جادَتْ عَلَيَّ بِهَذِهِ الأُرْجوزَةِ ، وأَراها مَتينَةً بارِعَةً ، وسَتَقَعُ مِنَ المَأْمونِ مَوْقِعَ الرِّضا والقَبولِ . »

قالَ الوالي : « كَيْفَ تَسْعى إِلى الخَليفَةِ في بَغْدادَ ، وتَمْثُلُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وتُنْشِدُهُ شِعْرًا تَمْتَدِحُهُ فيهِ ، ولا تَأْتي عَلى ذِكْرِ واليكَ ، ولا تُثْني عَلَيْهِ ؟»

ضَحِكَ الشّاعِرُ حَتّى بَدَتْ نَواجِذُهُ ، وقالَ :

« أَيُّها الوالي ، لَقَدْ أَرَدْتَ أَنْ تَمْكُرَ بي وتَخْدَعَني فَوَجَدْتَني أَشَدَّ مَكْرًا ، وأَكْثَرَ خِداعًا ! واللهِ إِنَّكَ لَمْ

تَحْمِلني عَلى بَعيرِكَ ، ولَمْ تُنْفِقْ عَلَيَّ مِنْ مالِكَ ، إلا لأَذْكُرَكَ عِنْدَ الخَليفَةِ المَأْمونِ ، وأَمْدَحَكَ في شِعْري . »

صَمَتَ الوالي ولَمْ يُجِبْ ، فَقَدْ سَطَعَتِ الحَقيقَةُ أَمامَ عَيْنِ الشّاعِرِ ، وبَدَتْ واضِحَةً جَلِيَّةً ، لا لَبْسَ فيها ولا غُموضَ ، فَلَمْ يَجِدِ الوالي مَفَرًّا مِنْ إعْلانِها وإِظْهارِها فَقالَ : « لَقَدْ صَدَقْتَ في كُلِّ ما قُلْتَ . »

قالَ الشّاعِرُ : « أَما وَقَدْ أَظْهَرْتَ نِيَّتَكَ ، واعْتَرَفْتَ بِما كُنْتَ قَدْ دَبَّرْتَ – فَإِني قَدْ ذَكَرْتُكَ ، وأَثْنَيْتُ عَلَيْكَ . »

ثُمَّ أَنْشَدَهُ الشّاعِرُ ما كانَ قَدْ حَذَفَهُ وأَخْفاهُ مِنْ أُرْجوزَتِهِ ، فإذا هُوَ يُعْجَبُ بِقَوْلِهِ ، ويَهْتَزُّ طَرَبًا لِشِعْرِهِ ، ويَقولُ لَهُ : « أَحْسَنْتَ ! أَحْسَنْتَ ! اذْهَبْ في رِعايَةِ اللهِ ، وعُدْ إِلَيْنا سالِمًا غانِمًا !»

وانْطَلَقَ الشّاعِرُ ، تَرْفَعُهُ النِّجادُ ، وتَحُطُّهُ الوِهادُ ، في طَريقِهِ إلى بَغْدادَ ، تُداعِبُهُ الأَمانِيُّ العِذابُ ، وتَتَراءَى لَهُ الآمالُ الكِبارُ ، حَتّى إذا بَلَغَ مَكانًا في الطَّريقِ بَيْنَ البَصْرَةِ

وبَغْدادَ ، أَبْصَرَ عَلى البُعْدِ خِيامًا كَثيرَةً ، وأَشْياءَ تَبْرُقُ في وَهَجِ الشَّمْسِ ، فَأَدْرَكَ أَنَّهُمْ جُنودٌ وأَنَّ هَذا مُعَسْكَرٌ . فَوَقَفَ في مَكانِهِ لا يَسْتَطيعُ حَراكًا ، ودَهاهُ شَيْءٌ مِنَ الذُّهولِ ، وأَصابَهُ بَعْضُ الوُجومِ . وبَيْنَما ذِهْنُهُ يُبْدِئُ ويُعيدُ ، وعَقْلُهُ يُجِدُّ التَّفْكيرَ في هَذا المَوْقِفِ الخَطيرِ – طَلَعَ عَلَيْهِ رَجُلٌ كَهْلٌ رَزينٌ ، قَدِ امْتَطَى ظَهْرَ بَغْلٍ فارِهٍ ، ما يَقِرُّ قَرارُهُ ، ولا تُدْرَكُ خُطاهُ .

وإذا المُفاجَأَةُ تَزيدُ الشّاعِرَ ذُهولاً ، وتُرْهِقُهُ تَفْكيرًا : أَهَبَطَ هَذا الكَهْلُ الرَّزينُ الوَقورُ مِنَ السَّماءِ ، أَمِ انْبَثَقَتْ عَنْهُ رِمالُ الصَّحْراءِ ؟ أَهُوَ مِنْ شَياطينِ الصَّحْراءِ وقُطّاعِ طَريقِها الَّذينَ يَسْلُبونَ النّاسَ أَمْوالَهُمْ ، ويُزْهِقونَ أَرْواحَهُمْ ؟

تَلَقّاهُ الرَّجُلُ الكَهْلُ وَجْهًا لِوَجْهٍ ، وقالَ لَهُ بِصَوْتٍ هادِئٍ واضِحٍ : « السَّلامُ عَلَيْكُمْ ورَحْمَةُ اللهِ . »

فَأَخْرَجَهُ الصَّوْتُ الهادِئُ الواضِحُ مِنْ ذُهولِهِ ، وأَشاعَ

في جوانِحِهِ لونًا مِنَ الرِّضا والارْتِياحِ ، اسْتَطاعَ بِهِما أَنْ يَجِدَ صَوْتَهُ ، وأَنْ يَرُدَّ عَلَيْهِ التَّحِيَّةَ بِأَحْسَنَ مِنْها ، فَقالَ :

« وعَلَيْكُمُ السَّلامُ ورَحْمَةُ اللهِ وبَرَكاتُهُ . »

قالَ الرَّجُلُ الكَهْلُ : « إِنْ شِئْتَ أَنْ تَقِفَ فَقِفْ . »

فَأَوْقَفَ الشّاعِرُ بَعيرَهُ ، وحَدَّدَ النَّظَرَ في الرَّجُلِ الكَهْلِ ، وإِذا هَيْئَتُهُ تَمْلأُ قَلْبَهُ هَيْبَةً وإِجْلالاً ، وإِذا رائِحَةُ العَنْبَرِ الَّتي تَتَضَوَّعُ مِنْهُ تَمْلأُ خَياشيمَهُ ، فَتَسْكُنُ إِلَيْها نَفْسُهُ ، ويَسْتَقِرُّ مَعَها خاطِرُهُ ، وإِذا هُوَ يَنْتَظِرُ ما يَقولُ الرَّجُلُ الكَهْلُ الوَقورُ .

قالَ الرَّجُلُ الكَهْلُ لِلشّاعِرِ : « ما أَوَّلُكَ ؟ »

وفَهِمَ الشّاعِرُ ما يَعْنيهِ هَذا السُّؤالُ ، فالرَّجُلُ الكَهْلُ يُريدُ مِنْهُ أَنْ يَذْكُرَ اسْمَ قَبيلَتِهِ الَّتي يَنْتَمي إِلَيْها ، فَأَجابَهُ عَلى الفَوْرِ : « رَجُلٌ مِنْ مُضَرَ . »

قالَ الرَّجُلُ الكَهْلُ : « ونَحْنُ - أَيْضًا - مِنْ مُضَرَ . »

وأَرْدَفَ : « ثُمَّ ماذا بَعْدَ مُضَرَ ؟ »

فَقالَ الشّاعِرُ : « رَجُلٌ مِنْ بَني تَميمٍ . »

ولَمْ يَقْنَعِ الرَّجُلُ الكَهْلُ بِهَذا الجَوابِ ، وأَرادَ أَنْ يَعْرِفَ العَشيرَةَ الَّتي يَنْتَسِبُ إِلَيْها ، فَسَأَلَهُ : « وما بَعْدَ تَميمٍ ؟ »

فَأَجابَهُ الشّاعِرُ : « رَجُلٌ مِنْ بَني سَعْدٍ . »

اطْمَأَنَّ الرَّجُلُ الكَهْلُ إِلى نَسَبِ الرَّجُلِ الَّذي يَقِفُ أَمامَهُ ، فَسَأَلَهُ :

« وما الَّذي جاءَ بِكَ إِلى هَذا البَلَدِ ؟ »

هَدَأَتْ نَفْسُ الشّاعِرِ كَثيرًا ، واسْتَراحَ خاطِرُهُ ، فانْبَسَطَتْ أَساريرُ وَجْهِهِ ، وقالَ لَهُ :

« قَصَدْتُ هَذا المَلِكَ ، الَّذي سارَتْ بِذِكْرِهِ الرُّكْبانُ ، فَلَمْ أَسْمَعْ عَنْ أَحَدٍ أَسْخَى مِنْهُ يَدًا ، ولا أَكْثَرَ مِنْهُ عَطاءً ، ولا أَوْسَعَ مِنْهُ راحَةً ، ولا أَطْوَلَ في الكَرَمِ باعًا ، ولا أَعْلى مِنْهُ مَقامًا . »

بانَ العَجَبُ على وَجْهِ الرَّجُلِ الكَهْلِ ، ثُمَّ قالَ لِلشّاعِرِ : « و بِأَيِّ شَيْءٍ قَصَدْتَ هَذا الْمَلِكَ ؟ »

فَأَجابَهُ الشّاعِرُ : « قَصَدْتُهُ بِشِعْرٍ طَرِيفٍ ، يَلَذُّ في الأَفْواهِ إِنْشادُهُ ، ويَحْلو في الآذانِ تَرْديدُهُ ، يَتَناقَلُهُ الرُّواةُ ، ويَشْدو بِهِ الحُداةُ . »

قالَ الرَّجُلُ الكَهْلُ : « هَلْ لَكَ في أَنْ تُسْمِعَني هَذا الشِّعْرَ ؟ »

فَبَدا الغَضَبُ عَلى وَجْهِ الشّاعِرِ ، ونَسِيَ خَوْفَهُ وهَلَعَهُ ، وتَخَلَّتْ عَنْهُ مَهابَتُهُ لِلرَّجُلِ وإِجْلالُهُ ، وأَسْرَعَتِ الكَلِماتُ تَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ شَفَتَيهِ :

« يا رَكيكُ (يا ضَعيفَ العَقْلِ والفِكْرِ) ، أَخْبَرْتُكَ أَنّي أَقْصِدُ الخَليفَةَ الْمَأْمونَ بِشِعْرٍ صَنَعْتُهُ فيهِ ، فَتَقولُ لي : أَنْشِدْني إِيّاهُ ؟ »

فابْتَلَعَ الرَّجُلُ الكَهْلُ هَذِهِ الكَلِمَةَ ، وأَضْرَبَ عَنْها

صَفْحًا ، وكَأَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْها ، ثُمَّ قالَ لِلشّاعِرِ : « وماذا تَرْجو مِنْهُ مِنْ عَطاءٍ ؟ »

فَأَجابَهُ الشّاعِرُ : « إِنْ كانَ كَما ذُكِرَ لي عَنْهُ فَأَلْفُ دينارٍ . »

قالَ الرَّجُلُ الكَهْلُ : « أَنا أُعْطيكَ الأَلْفَ إِنْ رَأَيْتُ شِعْرَكَ جَيِّدًا ، وكَلامَكَ عَذْبًا ، وإِيقاعَكَ ونَغَمَكَ حُلْوًا ، وأُريحُكَ مِنْ عَناءِ السَّفَرِ إِلى الخَليفَةِ ، ولَعَلَّكَ لا تَجِدُهُ ، أَو لا تَظْفَرُ عِنْدَهُ بِما تُريدُ . »

سُرَّ الشّاعِرُ بِهَذا القَوْلِ ، ورَأَى فيهِ الفَوْزَ بالجائِزَةِ السَّنِيَّةِ مَعَ الرّاحَةِ الهَنِيَّةِ ، فَقالَ لِلرَّجُلِ الكَهْلِ :

« لي عَلَيْكَ عَهْدُ اللهِ وميثاقُهُ أَنْ تُنْفِذَ قَوْلَكَ ، وتَفِيَ بِوَعْدِكَ . »

قالَ الرَّجُلُ الكَهْلُ : « لَكَ عَلَيَّ عَهْدُ اللهِ أَنْ أَفْعَلَ . »

وأَرادَ الشّاعِرُ أَنْ يَسْتَوْثِقَ مِنْ صِحَّةِ القَوْلِ ، ونَفاذِ الوَعْدِ ، فَقالَ لَهُ :

« أَمَعَكَ السّاعَةَ مالٌ يَفي بما وَعَدْتَ ؟»

أَجابَ الرَّجُلُ الكَهْلُ في هُدوءٍ وانْبِساطٍ :

« هَذا بَغْلي ، وهُوَ يُساوي أَكْثَرَ مِنْ أَلْفِ دينارٍ ، أَنْزِلُ لَكَ عَنْ ظَهْرِهِ ، وأَدْفَعُهُ إِلَيْكَ . »

فَغَضِبَ الشّاعِرُ ، واسْتَخَفَّهُ الحُمْقُ ، وظَنَّ أَنَّ الرَّجُلَ الكَهْلَ يَلْهو بِهِ ، ويَتَهَكَّمُ عَلَيْهِ ، فَقالَ لَهُ في حِدَّةٍ وانْفِعالٍ : « إِلَيْكَ عَنّي ، فَما يُساوي بَغْلُكَ هَذا بِجانِبِ شِعْري ؟»

ولَمْ يَغْضَبِ الرَّجُلُ الكَهْلُ ، ولَمْ يَعْتِبْ عَلى الشّاعِرِ ، بَلْ قَدَّرَ حالَتَهُ ، فَقالَ لَهُ :

« دَعْ عَنْكَ البَغْلَ ، لا شَأْنَ لَكَ بِهِ ، وسَأُعْطيكَ السّاعَةَ أَلْفَ دينارٍ إِنْ أَعْجَبَني شِعْرُكَ ، وراقَني قَوْلُكَ . »

ولَمْ يَجِدِ الشّاعِرُ مَفَرًّا مِنْ أَنْ يُنْشِدَهُ الشِّعْرَ ، فَإِذا الرَّجُلُ الكَهْلُ يَطْرَبُ لِلشِّعْرِ ، ويُزايِلُهُ بَعْضٌ مِنْ وَقارِهِ ،

وإِذا هُوَ يَهْتَزُّ ويَتَمايَلُ ذاتَ اليَمينِ وذاتَ الشِّمالِ ؛ إِقْرارًا مِنْهُ بِعُذوبَةِ الشِّعْرِ وحَلاوَتِهِ . . وكُلَّما أَمْعَنَ الشّاعِرُ في الإِنْشادِ أَمْعَنَ الرَّجُلُ الكَهْلُ في طَرَبِهِ ونَشْوَتِهِ .

وما إِنْ فَرَغَ الشّاعِرُ مِنْ إِنْشادِهِ حَتّى نَظَرَ حَوْلَهُ ، فَإِذا الفُرْسانُ يَسُدّونَ الأُفُقَ ، ويَحْجُبونَ الأَرْضَ ، وإِذا كَبيرُهُمْ يُسَلِّمُ عَلى الرَّجُلِ الكَهْلِ بِقَوْلِهِ : « السَّلامُ عَلَيْكَ يا أَميرَ المُؤْمِنينَ ورَحْمَةُ اللهِ وبَرَكاتُهُ . »

وما إِنْ سَمِعَ الشّاعِرُ هَذِهِ التَّحِيَّةَ ، حَتّى أَخَذَتْهُ الرِّعْدَةُ ، وأَصابَتْهُ الرَّجْفَةُ ، وانْتَفَضَ انْتِفاضًا قَوِيًّا ، حَتّى كادَ يُغْشى عَلَيْهِ .

نَظَرَ إِلَيْهِ المَأْمونُ في حالَتِهِ هَذِهِ ، وفاضَتْ نَفْسُهُ إِشْفاقًا عَلَيْهِ ، وقالَ لَهُ :

« لا بَأْسَ عَلَيْكَ ، يا أَخي ، لا تَخَفْ ولا تَحْزَنْ ؛ فَشِعْرُكَ رائِقٌ جَليلٌ ، وإِنْشادُكَ عَذْبٌ جَميلٌ ! »

قالَ الشّاعِرُ : « يا أَميرَ الْمُؤْمِنينَ ، جَعَلَني اللهُ فِداءَكَ ، هَلْ تَعْرِفُ لَهْجاتِ العَرَبِ ؟»

قالَ الْمَأْمونُ : « نَعَمْ ، أَعْرِفُها . »

قالَ الشّاعِرُ : « فَمَنِ القَبيلَةُ الَّتي تَجْعَلُ الكافَ بَدَلَ القافِ في قَوْلِها ؟»

فَأَجابَهُ الْمَأْمونُ : « هَذِهِ حِمْيَرُ . »

قالَ الشّاعِرُ : « لَعَنَ اللهُ حِمْيَرَ ، ولَعَنَ مَنِ اسْتَعْمَلَ لَهْجَتَها بَعْدَ اليَوْمِ ! »

أَدْرَكَ الْمَأْمونُ ما يَرْمي إِلَيْهِ الشّاعِرُ ، فَضَحِكَ ضَحِكًا قَوِيًّا بالِغًا ، فَقَدْ قالَ لَهُ « يا رَكيكُ » وهُوَ يَعْني « يا رَقيقُ » . والْتَفَتَ إِلى خادِمٍ لَهُ ، وقالَ لَهُ :

« أَعْطِ هَذا الرَّجُلَ ما مَعَكَ . »

فَأَخْرَجَ الخادِمُ كيسًا فيهِ ثَلاثَةُ آلافِ دينارٍ ، وقالَ

لِلشّاعِرِ : « هاكَ الكيسُ بِما فيهِ . »

ثُمَّ ودَّعَهُ الْمَأْمونُ و مَضى في طَريقِهِ .

حَجَرُ الذُّباب

حَكى رَجُلٌ صانِعٌ مِنْ أَهْلِ خُراسانَ (وهِيَ مَدينَةٌ عَظيمَةٌ تَقَعُ في إيرانَ الآنَ) ، وكانَتْ صِناعَةُ هَذا الرَّجُلِ تَتَّصِلُ بالأَحْجارِ ، فَهُوَ يَعْرِفُ أَنْواعَها ، وخَصائِصَ كُلِّ نَوْعٍ ، وآثارَهُ و فَوائِدَهُ . حَكى فَقالَ :

« كُنْتُ مَرَّةً في طَريقي إلى مِصْرَ ، فَأَبْصَرْتُ رَجُلاً جالِسًا في الطَّريقِ ، وبَيْنَ يَدَيهِ حَجَرٌ يَلْهو بِهِ ، ويُقَلِّبُهُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وأَدْرَكْتُ مِنْ نَظْرَتِهِ أَنَّهُ لا يَعْرِفُ قيمَةَ الحَجَرِ وإنْ كانَ يُعْجِبُهُ مَنْظَرُهُ ، ويَرْتاحُ إلى شَكْلِهِ . وكُنْتُ أَطْلُبُهُ وأَبْحَثُ عَنْهُ مُنْذُ زَمَنٍ بَعيدٍ ، في كُلِّ مَكانٍ حَلَلْتُ فيهِ . فَلَمّا أَبْصَرْتُهُ فَرِحْتُ فَرَحًا بالِغًا ، وعَزَمْتُ عَلى شِرائِهِ مِنَ الرَّجُلِ مَهْما غالى في الثَّمَنِ ، فَتَقَدَّمْتُ مِنْهُ ، وسَلَّمْتُ عَلَيْهِ ،

وقُلْتُ لَهُ : « أَتَبيعُني هَذا الحَجَرَ ، يا أَخي ؟ »

فَأَجابَ : « نَعَمْ ، كَمْ تَدْفَعُ ثَمَنًا لَهُ ؟ »

وساوَمَني وساوَمْتُهُ ، حَتّى بَلَغَ الثَّمَنُ خَمْسَةَ دَراهِمَ ، أَصَرَّ الرَّجُلُ عَلَيْها ، ولَمْ يَتَنازَلْ عَنْها ، فَنَقَدْتُهُ إيّاها ، وأَخَذْتُ الحَجَرَ وهَمَمْتُ بالانْصِرافِ .

نَظَرَ الرَّجُلُ إلَيَّ ، وقَدْ حَصَلَ الثَّمَنُ في يَدِهِ ، وحَصَلَ الحَجَرُ في يَدي ، نَظْرَةً تَفيضُ بالسُّخْرِيَةِ و التَّهَكُّمِ ، ثُمَّ قالَ: « يَجيءُ هَؤُلاءِ الحَميرُ ، لا يَدْرونَ ماذا يُعْطونَ ، ولا ماذا يَأْخُذونَ ! هَذِهِ الحَصاةُ رَأَيْتُها مُنْذُ أَيّامٍ مَعَ صَبِيٍّ يَلْهو بِها ، ويَكادُ يَقْذِفُها ، فَراقَني مَنْظَرُها ، فَوَهَبْتُهُ فَلْسًا يَشْتَري بِهِ حَلْوَى ، وأَخَذْتُها ، ثُمَّ جاءَ هَذا الأَحْمَقُ فاشْتَراها مِنّي بِخَمْسَةِ دَراهِمَ ! »

فَرَجَعْتُ إلَيْهِ ، وقَدْ آلَمَني قَوْلُهُ ، وغاظَني تَهَكُّمُهُ وسُخْرِيَتُهُ ، وقُلْتُ لَهُ : « يَجِبُ أَنْ أُعَرِّفَكَ أَيُّنا الأَحْمَقُ . »

قالَ : « كَيْفَ ؟ »



قُلْتُ : « قُمْ مَعي حَتّى أُعَرِّفَكَ ذَلِكَ ، وأَجْعَلَكَ تَتَحَسَّرُ عَلى كُلِّ كَلِمَةٍ تَفَوَّهْتَ بِها . »

فَنَهَضَ مِنْ مَجْلِسِهِ ، ومَضى مَعي لا يَسْأَلُني عَنْ شَيْءٍ ، حَتّى بَلَغْنا السّوقَ ، واجْتَزْنا بِبائِعٍ يَبيعُ البَلَحَ في قَصْعَةٍ واسِعَةٍ ، وقَدْ حَطَّ الذُّبابُ عَلى بِضاعَتِهِ ، و هُوَ يَهُشُّهُ فَلا يَكادُ يَذْهَبُ حَتّى يَعودَ ، فَحَيَّيْتُ البائِعَ ، ونَحَّيْتُهُ بَعيداً عَنِ القَصْعَةِ ، ثُمَّ جَعَلْتُ الحَجَرَ في وَسَطِها ، وكانَتِ الْمُفاجَأَةُ الَّتي أَدْهَشَتِ الرَّجُلَ وأَذْهَلَتْهُ !

ما إِنْ وَضَعْتُ الحَجَرَ فَوْقَ البَلَحِ ، واسْتَقَرَّ عَلَيْهِ ، حَتّى طارَ الذُّبابُ جَميعُهُ ، لَمْ تَبْقَ مِنْهُ ذُبابَةٌ واحِدَةٌ ، ولَمْ تُحَوِّمْ واحِدَةٌ حَوْلَ القَصْعَةِ . تَرَكْتُ الحَجَرَ كَذَلِكَ والقَصْعَةُ خالِيَةٌ مِنَ الذُّبابِ ساعَةً مِنَ الزَّمانِ ، ثُمَّ رَفَعْتُهُ عَنْها وأَخْفَيْتُهُ فَعادَ الذُّبابُ يَطِنُّ طَنيناً يُعْلِنُ فَرْحَتَهُ وبَهْجَتَهُ ، وحَطَّ فَوْقَ البَلَحِ كَما كانَ ، ثُمَّ رَدَدْتُ الحَجَرَ فَوْقَ البَلَحِ فَطارَ الذُّبابُ كُلَّ مَطارٍ . فَعَلْتُ ذَلِكَ مَرّاتٍ

عَـديدَةً ، والرَّجُلُ يُحَمْلِقُ بِعَيْنَيْـهِ ، ويَفْـغَـرُ فـاهُ دَهْشَـةً وحَيْرَةً ، وأَسَفًا وأَسًى عَلى هَذا الحَجَرِ النادِرِ الَّذي ضاعَ مِنْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَراهِمَ مَعْـدودَةٍ ، ويَكادُ يَذوبُ خَـجَلاً وحُزْنًا أَنْ سَخِرَ مِنّي ، وتَهَكَّمَ عَلَيَّ . ثُمَّ قُلْتُ لَهُ :

« يا أَحْـمَقُ ، هَذا حَـجَـرُ الذُّبابِ ، وقَـدْ كُنْتُ أَطْلُبُهُ وأَبْحَثُ عَنْهُ مُنْذُ زَمَنٍ بَعيدٍ ، حَتّى عَثَرْتُ عَلَيْهِ مَعَكَ ، فَكِدْتُ أَطيرُ مِنْ شِدَّةِ الفَرَحِ .

« يا أَحْمَقُ ، هَذا الحَجَرُ يَضَعُهُ المُلوكُ عَلى مَوائِدِهِمْ ، فَلا يَقْرَبُها الذُّبابُ ، ولا يَحْتاجونَ إِلى مِذَبَّةٍ (مِنَشَّة) ولا إِلى مِرْوَحَةٍ .

« يا أَحْمَقُ ، واللهِ لَوْ لَمْ تَبِعْني إِيّاهُ إِلا بِخَمْسِمائَةِ دينارٍ لاشْتَرَيْتُهُ مِنْكَ !

« فَشَهِقَ الرَّجُلُ شَهْقَةً قَدَّرْتُ مَعَها أَنَّهُ قَدْ تَلِفَ وهَلَكَ ، ولَكِنَّهُ أَفاقَ بَعْدَ ساعَةٍ مِنَ الزَّمانِ ، ومَضى وهُوَ يَجُرُّ أَذْيالَ الخَيْبَةِ والخُسْرانِ !»

أَحْمَدُ بْنُ طولونَ والطَّبيبُ

كـانَ أَحْـمَـدُ بْنُ طولونَ والِيًا عَلى مِـصْـرَ ، وقَـدْ بَنى مَسْجِدًا عَظيمًا ، وقَلْعَةً حَصينَةً ، واتَّخَذَ لَهُ دارًا مَهيبَةً ؛ فَقَدِ ازْدَهَرَتْ مِصْرُ في وِلايَتِهِ ، وأَخْصَبَتْ أَرْضُها ، وأَيْنَعَتْ زِراعَتُها ، وراجَتْ صِناعَتُها ، ونَفَقَتْ تِجارَتُها وعادَ عَلَيْهِ وعَلى النّاسِ كُلُّ ذَلِكَ بِالخَيْرِ العَميمِ ، والرَّخاءِ العَظيمِ .

وكـانَ لَهُ طَـبـيبٌ اسْـمُـهُ « سـعـيـد » يُرافِقُـهُ في حِلِّهِ وتَرْحالِهِ ، ويَصْـحَـبُهُ في السَّفَرِ والحَضَرِ . وكـانَ لِهَذا الطَّبيبِ غُلامٌ اسْمُهُ « هاشِم » ، قَبيحُ الصّورَةِ ، زَرِيُّ الشَّكْلِ ، يَخْدِمُ بَغْلَةَ الطَّبيبِ « سـعـيـد » : يَقـودُها إِذا رَكِبَ ، ويُمْـسِكُهـا إِذا نَزَلَ ، ويَقِفُ بِهـا أَمـامَ دارِ ابْنِ طولونَ إِذا الطَّبيبُ دَخَلَ . وكـانَ الطَّبيبُ يَسْتَعينُ بِهِ في

سَحْقِ الأَدْوِيَةِ وطَحْنِها في دارِهِ ، وفي نَفْخِ النّارِ عَلى الأَدْوِيَةِ الَّتي يَقومُ بِطَبْخِها ، فاكْتَسَبَ بِهذا الصَّنيعِ بَعْضَ الخِبْرَةِ ، وغَدَتْ لَهُ مَعْرِفَةٌ ضَئيلَةٌ بالأَدْوِيَةِ وطَريقَةِ صُنْعِها ، وبَعْضِ اسْتِخْداماتِها .

وذاتَ يَوْمٍ تَقَدَّمَ ابْنُ طولونَ إلى طَبيبِهِ سَعيدٍ لِكَي يَخْتارَ طَبيبًا حاذِقًا ، يَسْهَرُ عَلى راحَةِ نِساءِ القَصْرِ ، ويُشَخِّصُ ما يَعْتَريهِنَّ مِنْ مَرَضٍ ، ويَصِفُ لَهُنَّ ما يَنْفَعُهُنَّ مِنْ دَواءٍ .

فَقالَ الطَّبيبُ : « لي ، يا مَوْلايَ ، ابْنٌ ذَكِيُّ الرّوحِ ، لَبِقُ الحَديثِ ، واسِعُ المَعْرِفَةِ بالطِّبِّ ، قَدْ عَلَّمْتُهُ وخَرَّجْتُهُ . »

قالَ ابْنُ طولونَ : « أَرِني إِيّاهُ . »

فَأَحْضَرَهُ الطَّبيبُ سَعيدٌ ، فَلَمّا أَبْصَرَهُ ابْنُ طولونَ أَبْصَرَ شابًّا حَسَنَ الصّورَةِ ، رائِقَ المَنْظَرِ ، بَهِيَّ الطَّلْعَةِ ، جَميلَ التَّقاطيعِ ، فَقالَ لِطَبيبِهِ : « هذا لا يَصْلُحُ لِخِدْمَةِ النِّساءِ . أَحْتاجُ لَهُنَّ طَبيبًا جَيِّدَ المَعْرِفَةِ بالطِّبِّ ، قَبيحَ الصّورَةِ . »

أَخَذَ الطَّبيبُ « سَعيد » يَكُدُّ ذِهْنَهُ ، ويُمْعِنُ في الفِكْرِ ،

ويَبْحَثُ عَمَّنْ يَخْتارُ لِهذِهِ المُهِمَّةِ الصَّعْبَةِ ، وفي الوَقْتِ ذاتِهِ لا يَنْبو عَنْهُ ، ولا يَخْرُجُ عَنْ طَوْعِهِ ، ولا يُخالِفُ عَلَيْهِ ، وإِنَّما يَظَلُّ يَحْمَدُ لَهُ اخْتِيارَهُ لَهُ ، ويَحْفَظُ لَهُ مَعْروفَهُ ، ويَدينُ لَهُ بالوَلاءِ . فَكَّرَ وفَكَّرَ ثُمَّ فَكَّرَ وقَدَّرَ ، وإِذا عَيْنُهُ تَقَعُ عَلى خادِمِهِ « هاشم » في أَثْناءِ تَفْكيرِهِ ، فَصاحَ صَيْحَةً مَكْتومَةً : « وَجَدْتُهُ ! وَجَدْتُهُ ! »

ولَمْ يُضَيِّعِ الطَّبيبُ وَقْتًا ، بَلْ أَسْرَعَ فَأَلْبَسَ خادِمَهُ « هاشِمًا » جُبَّةً مَقْبولَةً ، وخُفَّيْنِ في قَدَمَيْهِ ، ثُمَّ أَدْخَلَهُ عَلى ابْنِ طولونَ ، وقالَ لَهُ : « هذِهِ طِلْبَتُكَ ، يا مَوْلايَ . »

أَنْعَمَ ابْنُ طولونَ النَّظَرَ فيهِ ، فَرَآهُ كَما يَشْتَهي في قُبْحِ المَنْظَرِ وسوئِهِ ، فاسْتَوْثَقَ مِنْ حُسْنِ مَعْرِفَتِهِ بالطِّبِّ ، وخِبْرَتِهِ بالأَدْوِيَةِ ، ثُمَّ عَيَّنَهُ طَبيبًا لِنِساءِ القَصْرِ .

وبَعْدَ أَيّامٍ مَعْدوداتٍ لَقِيَ الطَّبيبَ سَعيدًا طَبيبٌ صَديقٌ يُدْعى « عُمَرَ بْنَ صَخْرٍ » فَقالَ لَهُ : « ما الَّذي نَصَّبْتَ لَهُ خادِمَكَ هاشِمًا ، يا سَعيدُ ؟ »

فَأجابَهُ سَعيدٌ : « نَصَّبْتُهُ طَبيبًا لِنساءِ القَصْرِ ؛ لأَنَّ الأميرَ طَلَبَ رَجُلاً قَبيحَ الصّورَةِ . »

قالَ لَهُ عُمَرُ : « أَلَمْ تَجِدْ في أَبْناءِ الأَطِبّاءِ شابًّا قَبيحًا قَدْ حَسُنَتْ تَرْبِيَتُهُ ، وطابَ مَغْرِسُهُ يَصْلُحُ لِهَذا الغَرَضِ ؟ أَلَيسَ هُناكَ مَنْ يَصْلُحُ لَهُ غَيْرُ خادِمِكَ هاشِم ؟ واللهِ لَقَدِ اسْتَرْخَصْتَ الصَّنْعَةَ ، يا سَعيدُ ، و واللهِ إنْ قَوِيَتْ يَدُهُ ، واسْتَحْصَدَتْ تَجْرِبَتُهُ – لَيَرْجِعَنَّ إلى دَناءَةِ أَصْلِهِ ، وخِسَّةِ طَبْعِهِ ، فَيَكونُ وَبالاً عَلَيْكَ مِنْ حَيْثُ لا تَدْري ! »

فَتَضاحَكَ سَعيدٌ مِنْ هذا الكَلامِ ، وقالَ لِصاحِبِهِ :

« لَقَدْ بَلَوْتُهُ وعَرَفْتُهُ فَما يَخْرُجُ عَنْ طاعَتي ، وسَيَظَلُّ يَتَحَسَّسُ دائِمًا مَوْضِعَ رِضايَ ، وسَيَحْتاجُ إِلَيَّ في القَليلِ والكَثيرِ مِنْ أَمْرِ الطِّبِّ ، وسَيَكونُ عَوْنًا لي لا عَوْنًا عَلَيَّ . »

فَتَبَسَّمَ صاحِبُهُ ضاحِكًا مِنْ قَوْلِهِ ، وقالَ لَهُ : « سَنَرى ، يا سَعيدُ ! »

وتَمَكَّنَ « هاشِمٌ » مِنْ نُفوسِ النِّساءِ ، وراقَتْهُنَّ خِدْمَتُهُ ، خاصَّةً وقَدْ وافَقَ رَغَباتِهِنَّ ، وراحَ يَصْنَعُ لَهُنَّ مِنَ الأَدْوِيَةِ ما يُحْبِبْنَ ، فَهَذِهِ أَدْوِيَةٌ تُحَسِّنُ اللَّوْنَ وتُنَضِّرُهُ ، وهَذِهِ أَدْوِيَةٌ تَعْمَلُ عَلى غَزارَةِ الشَّعْرِ ، وتُكْسِبُهُ بَريقًا ولَمَعانًا ، وهَذِهِ أَدْوِيَةٌ تَمْلأُ الجِسْمَ شَحْمًا ولَحْمًا ، وهَذِهِ أَدْوِيَةٌ تَجْعَلُ الأَسْنانَ بَيْضاءَ ذاتَ بَريق ، وغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الأَدْوِيَةِ والوَصَفاتِ الَّتي تَحْرِصُ عَلَيْها النِّساءُ ، وتُغْرَمُ بِها غَرامًا شَديدًا . وإذا « هاشِمٌ » مُقَدَّمٌ عِنْدَهُنَّ عَلى « سَعيد » ، ولا غَرابَةَ في أَنْ يَتَفَوَّقَ التِّلْميذُ عَلى أُسْتاذِهِ ! وإذا ثَناؤُهُنَّ عَلى بَراعَتِهِ في طِبِّهِ ، واقْتِدارِهِ في صَنْعَتِهِ يَبْلُغُ مَسامِعَ ابْنِ طولونَ ، ويَقَعُ رِضاهُنَّ عَنْ «هاشِم » مِنْ نَفْسِهِ مَوْقِعًا حَسَنًا .

وتَصادَفَ أَنْ خَرَجَ ابْنُ طولونَ إلى بِلادِ الشّامِ ، وقَصَدَ إلى الثُّغورِ لإِصْلاحِها ، والْعَمَلِ عَلى تَقْوِيَةِ حُصونِها ، ورِعايَةِ شُئونِها ، والاطْمِئْنانِ عَلى القائِمينَ عَلى أَمْرِها ، ومَدى تَدْبيرِهِمْ شُئونَ ساكِنيها . وإذا مَغْصٌ شَديدٌ

يُدْرِكُهُ ، يَكادُ يُقَطِّعُ أَمْعاءَهُ تَقْطيعًا ، يَعْقُبُهُ إِسْهالٌ قَوِيٌّ عَنيفٌ ، يَجْعَلُهُ لا يَكادُ يَسْتَقِرُّ في مَجْلِسِهِ ، واشْتَدَّ بِهِ الوَجَعُ ، وطالَ أَمَدُهُ ، فَأَسْرَعَ يَدْعو طَبيبَهُ « سَعيدًا » عَلى عَجَلٍ ، وإِذا « سَعيدٌ » لا يُنْجِدُهُ ؛ إِذْ هُوَ قَدْ خَرَجَ إِلى ضَيْعَةٍ لَهُ ، يَسْتَطيبُ هَواءَها ، ويَسْتَريحُ إِلى الإِقامَةِ فيها ، وإِذا الغَيْظُ يَتَمَكَّنُ مِنِ ابْنِ طولونَ تَمَكُّنًا شَديدًا ، ويَهُمُّ بِأَنْ يَبْطِشَ بِطَبيبِهِ حينَما حَضَرَ ، ولَكِنَّهُ يَكْتَفي بِأَنْ يُغْلِظَ لَهُ في القَوْلِ ، ويُعَنِّفَهُ تَعْنيفًا بالِغًا ؛ لأَنَّهُ تَأَخَّرَ عَنْ إِغاثَتِهِ ، ولَمْ يَجِدْهُ حينَ اسْتَصْرَخَهُ ، وقالَ لَهُ : « تَشْغَلُكَ ، يا سَعيدُ ، صَنْعَتُكَ عَنْ صُحْبَتي ؟ اِعْلَمْ ، يا سَعيدُ ، أَنَّكَ تَسْبِقُني إِلى الْمَوْتِ إِنْ كانَ مَوْتي عَلى فِراشي ؛ فَإِنِّي لا أُتيحُ لَكَ أَنْ تَسْتَمْتِعَ بِشَيْءٍ بَعْدي ! »

وأَنِفَ ابْنُ طولونَ أَنْ يَشْكُوَ إِلى طَبيبِهِ ما يَجِدُهُ مِنْ أَلَمٍ ، وما يَعْتَصِرُ أَمْعاءَهُ مِنْ وَجَعٍ .

ولَمْ يَسْأَلْهُ سَعيدٌ عَنْ سَبَبِ اسْتِدْعائِهِ ، ولا عَنْ سَبَبِ لَوْمِهِ وتَعْنيفِهِ في التَّأَخُّرِ والإِبْطاءِ . ولَمّا خَرَجَ قالَ لَهُ

كاتِبُ ابْنِ طولونَ : « وَيْحَكَ ، يا سَعيدُ ، إِنَّكَ حاذِقٌ في طِبِّكَ ، ماهِرٌ في صِناعَتِكَ ، ولَيْسَ لَكَ عَيْبٌ إِلا أَنَّكَ مُدِلٌّ بِها . والأَميرُ وإِنْ كانَ فَصيحَ اللِّسانِ ، عَرَبِيَّ الكَلامِ - فَهُوَ أَعْجَمِيُّ الطَّبْعِ ، فَتَلَطَّفْ لَهُ ، وارْفُقْ بِهِ ، وراعِ حالَهُ . . »

فَقالَ سَعيدٌ لِلكاتِبِ : « واللهِ إِنَّ خِدْمَتي لَهُ كَخِدْمَةِ الفَأْرِ لِلقِطِّ ، وإِنِّي دائِمًا مِنْهُ عَلى حَذَرٍ . وإِنَّ قَتْلي لأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ صُحْبَتِهِ ! »

ثُمَّ زادَ الْمَرَضُ عَلى ابْنِ طولونَ واشْتَدَّ في اللَّيْلَةِ الثّانِيَةِ ، فاسْتَدْعى « سَعيدًا » فَجاءَهُ عَلى عَجَلٍ ، فَقالَ لَهُ : « أَنا مُنْذُ يَوْمَيْنِ عَليلٌ ، يَهِدُّني الْمَرَضُ ، وأَنْتَ مُسْتَقِرٌّ في دارِكَ لا تُبالي . »

قالَ سَعيدٌ : « يا مَوْلايَ ، لَقَدْ جِئْتُ أَمْسِ كَما طَلَبْتَني ، ولَكِنَّكَ لَمْ تُخْبِرْني بِشَيْءٍ . »

فَقالَ ابْنُ طولونَ : « كانَ الواجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَسْأَلَ عَنْ

حالي . . هَلْ غابَ عَنْ فِطْنَتِكَ أَنِّي ما دَعَوْتُكَ إِلاَّ لأَمْرٍ حَدَثَ ؟ »

قالَ سَعيدٌ : « ظَنُّكَ بي ، يا مَوْلايَ ، سَيِّئٌ مُنْذُ الآنَ . فَماذا أَفْعَلُ ؟ »

قالَ ابْنُ طولونَ : « لَقَدْ عَرَفْتَ الآنَ حالي ، فَما العَمَلُ؟ »

أَجابَ سَعيدٌ : « لا تَقْرَبْ شَيْئًا مِنَ الطَّعامِ ، وَلَوِ اشْتَهَيْتَهُ ، اليَوْمَ و غَدًا . »

قالَ ابْنُ طولونَ : « أَنا واللهِ جائِعٌ ، وما بي طاقَةٌ عَلى الصَّبْرِ عَنِ الطَّعامِ . »

قالَ سَعيدٌ : « هَذا جوعٌ كاذِبٌ ، يا مَوْلايَ ، نَتيجَةَ بَرْدِ الْمَعِدَةِ ، فاصْبِرْ عَلَيْهِ . »

وما إِنِ اسْتَأْذَنَ الطَّبيبُ سَعيدٌ وخَرَجَ حَتّى دَخَلَتْ زَوْجَةُ ابْنِ طولونَ ، فَوَجَدَتْ زَوْجَها يَتَلَوّى مِنَ الأَلَمِ ، ويَتَأَوَّهُ مِنَ الوَجَعِ ، فَقالَتْ لَهُ في غَيْظٍ :

« ما لَكَ ولِسعيدٍ هَذا ؟ لَقَدْ شاخَ وشاخَ طِبُّهُ مَعَهُ . . أَنَسيتَ الطَّبيبَ هاشِمًا ؟ إِنَّهُ بارِعٌ في تَشْخيصِهِ لِلدّاءِ بَراعَتَهُ في وَصْفِ الدَّواءِ . سَأُسْرِعُ في اسْتِدْعائِهِ ، يا مَوْلايَ ، فَلَعَلَّ اللهَ يَجْعَلُ عَلى يَدِهِ شِفاءَكَ مِنَ السَّقَمِ ! »

وأَمَرَتْ باسْتِدعاءِ الطَّبيبِ « هاشِم » عَلى عَجَلٍ ، فَلَبّى النِّداءَ مُسْرِعًا ، فَلَمّا دَخَلَ عَلى الأَميرِ سَلَّمَ وَحَيّا ، ثُمَّ قالَ : « سَلِمْتَ ، يا مَوْلايَ ، مِنْ كُلِّ داءٍ . ما شَكْواكَ ، يا مَوْلايَ ؟ »

ثُمَّ نَظَرَ في وَجْهِ الأَميرِ ، وقالَ في سِرِّهِ : « لا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إِلاَّ باللهِ ! » ثُمَّ قالَ بِصَوْتٍ عالٍ : « أَغُفِلَ أَمْرُ مَوْلايَ حَتّى بَلَغَ هَذِهِ الحالَةَ ! لا أَحْسَنَ اللهُ جَزاءَ مَنْ يَتَوَلّى أَمْرَهُ ! »

قالَ لَهُ ابْنُ طولونَ في صَوْتٍ هَدَّهُ الأَلَمُ : « وما الصَّوابُ يا هاشِمُ ؟ »

فَهَزَّ « هاشِم » رَأْسَهُ ، وأَمْسَكَ بِقارورَةٍ فيها شَرابٌ قَدْ

أَعَدَّهُ ، ثُمَّ سَقى مِنْهُ الأَميرَ ، فَأَحَسَّ بِهِ الأَميرُ يَسْري في بَدَنِه ، وشَعَرَ مَعَهُ بِدَبيبِ العافِيَةِ في جَسَدِهِ ، وهَدَأَتْ تَقَلُّصاتُ مَعِدَتِه ، فَظَنَّ أَنَّ البُرْءَ قَدْ جاءَهُ ، وأَنَّ ثَوْبَ الصِّحَّةِ قَدْ لَبِسَهُ . فَقالَ لِهاشِمٍ : « إِنَّني أَشْتَهي العَصيدَةَ (نَوْعٌ مِنَ الطَّعامِ) وسَعيدٌ يَمْنَعُني مِنْها . »

قالَ هاشِمٌ : « أَخْطَأَ سَعيدٌ ، يا مَوْلايَ . إِنَّ العَصيدَةَ مُغَذِّيَةٌ لَكَ ، ولَها أَثَرٌ حَميدٌ فيكَ . »

فَطَرِبَ ابْنُ طولونَ لِهَذا الجَوابِ طَرَبًا شَديدًا بَدا في حَرَكَةِ يَدَيْهِ ، واهْتِزازِ جِسْمِهِ ، والابْتِسامَةِ العَريضَةِ الَّتي مَلأَتْ وَجْهَهُ . ثُمَّ قالَ : « بارَكَ اللهُ فيكَ ، يا هاشِمُ ! نِعْمَ الطَّبيبُ أَنْتَ ! »

ثُمَّ أَمَرَ بِالعَصيدَةِ فَعُمِلَتْ ، وأَكَلَ مِنْها حَتّى شَبِعَ ، وطابَ نَفْسًا بِبُلوغِ شَهْوَتِهِ ، وقَرَّ عَيْنًا بِطَعامِهِ ، ثُمَّ راحَ في نَومٍ عَميقٍ ، وتَوَهَّمَ هُوَ ومَنْ حَوْلَهُ أَنَّ حالَهُ زادَتْ صَلاحًا .

وحينَ حَضَرَ الطَّبيبُ سَعيدٌ لِعِيادَةِ ابْنِ طولونَ في اليَوْمِ التّالي بادَرَهُ ابْنُ طولونَ بِسُؤالِهِ : « ما تَقولُ في العَصيدَةِ؟ »

أَجابَ سَعيدٌ : « هِيَ ثَقيلَةٌ عَلى المَعِدَةِ والأَمْعاءِ ، وأَعْضاءُ الأَميرِ في حاجَةٍ إِلى التَّخْفيفِ عَنْها . »

قالَ لَهُ ابْنُ طولونَ : « دَعْنا مِنْ هَذِهِ الاخْتِلافاتِ والأَكاذيبِ الَّتي تَخْدَعونَ بِها النّاسَ ، وتُخَوِّفونَهُمْ عاقِبَةَ مُخالَفَتِكُمْ . لَقَدْ أَكَلْتُ مِنْها حَتّى شَبِعْتُ ، ونَفَعَتْني والحَمْدُ للهِ . »

قالَ سَعيدٌ : « اللهُ المُسْتَعانُ ! »

قالَ ابْنُ طولونَ : « ما تَقولُ في السَّفَرْجَلِ ؟ » (وهُوَ شَجَرٌ مُثْمِرٌ مِنَ الفَصيلَةِ الوَرْدِيَّةِ)

أَجابَ سَعيدٌ : « تَمُصُّ مِنْهُ ، يا مَوْلايَ ، عَلى خُلُوِّ المَعِدَةِ والأَحْشاءِ فَإِنَّهُ نافِعٌ إِنْ شاءَ اللهُ . »

فَلَمّا خَرَجَ سَعيدٌ مِنْ عِنْدِ الأَميرِ ، أَمَرَ بِالسَّفَرْجَلِ فَأُحْضِرَ ، فَأَكَلَ ابْنُ طولونَ ما شاءَ اللهُ لَهُ أَنْ يَأْكُلَ .

وإذا السَّفَرْجَلُ يَدْخُلُ المَعِدَةَ فَيَجِدُ العَصيدَةَ ما زالَتْ كَما هِيَ لَمْ تُهْضَمْ ولَمْ تُمْتَصّ ، فَيَعْمَلُ عَلى عَصْرِها ، وإذا الإِسْهالُ يَتَزايَدُ وَيَتَدافَعُ حَتّى قامَ الأَميرُ مِنْ مَجْلِسِهِ أَكْثَرَ مِنْ عَشْرِ مَرّاتٍ في لَحَظاتٍ قَليلَةٍ !

وفي نَوْبَةِ غَضَبٍ شَديدَةٍ ، خَلَّفَها الأَلَمُ العَنيفُ الَّذي يَكادُ يُقَطِّعُ أَمْعاءَهُ – دَعا ابْنُ طولونَ سَعيداً إِلَيْهِ . وما إِنْ رَآهُ حَتّى صَرَخَ فيهِ ، يُوسِعُهُ سَبّاً ، وتَوبيخاً ، ويَقولُ لَهُ : « زَعَمْتَ أَنَّ السَّفَرْجَلَ نافِعٌ لي . لَقَدْ عادَ إِلَيَّ الإِسْهالُ أَشَدَّ وأَعْنَفَ مِمّا كانَ ! »

فَقامَ سَعيدٌ ، ونَظَرَ في المادَّةِ المُخْرَجَةِ ، ثم رَجَعَ إِلى الأَميرِ ، وقالَ : « يا مَوْلايَ ، هَذِهِ العَصيدَةُ الَّتي حَمِدْتَها ، وذَكَرْتَ لي أَنّي غَلِطْتُ في مَنْعِها ، لَمْ تَزَلْ مُقيمَةً في الأَحْشاءِ لا تُطيقُ هَضْمَها لِضَعْفِ قُواها ، حَتّى دَخَلَ عَلَيْها السَّفَرْجَلُ فَعَصَرَها . وما أَوْصَيْتُ بِأَكْلِهِ ، بَلْ أَوْصَيْتُ بِمَصِّهِ . »

ثُمَّ سَأَلَ سَعيدٌ الأَميرَ عَنْ مِقدارِ ما أَكَلَ مِنَ السَّفَرْجَلِ ، فَأَجابَ : « سَفَرْجَلَتَيْنِ . »

فَقالَ سَعيدٌ : « أَكَلْتَ ، يا مَوْلايَ ، السَّفَرْجَلَ لِلشِّبَعِ لا لِلعِلاجِ . »

فَقالَ ابْنُ طولونَ : « يا لَئيمُ ، تَتَنَدَّرُ عَلَيَّ وأَنْتَ صَحيحٌ سَليمٌ و أَنا عَليلٌ مُتْعَبٌ ! »

ثُمَّ أَمَرَ بِضَرْبِهِ مائَتَيْ سَوْطٍ ! وأَمَرَ بِأَنْ يَطوفوا بِهِ عَلى جَمَلٍ ، و وَجْهُهُ إِلى ذَيْلِ الجَمَلِ ، وأَنْ يُنادى عَلَيْهِ : «هَذا جَزاءُ مَنِ اؤْتُمِنَ فَخانَ – خانَ أَمانَةَ المِهْنَةِ ، وقَصَّرَ في حَقِّ السُّلْطانِ ، ولَوْ لَمْ يُقَصِّرْ لَكانَ في أَحْسَنِ حالٍ !»

وأَسْرَعَ الصِّبْيَةُ والعامَّةُ يَتَجَمَّعونَ وراءَهُ ، و يَصيحونَ بِهِ ، وماتَ بَعْدَ يَوْمَيْنِ مِنْ هَذِهِ المَهانَةِ الَّتي لَحِقَتْ بِهِ ، والذِّلَّةِ الَّتي رَكِبَتْهُ . ولَمْ يُمْهِلِ المَوْتُ ابْنَ طولونَ فَماتَ بَعْدَ ذَلِكَ بِقَليلٍ في عِلَّتِهِ !

حُرْمَةُ الجِوارِ

أَبو حَنيفَةَ النُّعْمانُ عالِمٌ مِنْ عُلَماءِ الشَّريعَةِ ، وإِمامٌ مِنْ أَئِمَّةِ الفِقْهِ ، كانَ يَقْطُنُ إِلى جِوارِهِ رَجُلٌ يَعْمَلُ إِسْكافًا ، أي يَصْنَعُ الأَحْذِيَةَ ويُصْلِحُها . وكانَ هَذا الرَّجُلُ يَعْمَلُ في دُكّانِهِ طَوالَ نَهارِهِ ، فإِذا جَنَّ اللَّيْلُ اشْتَرى بِما مَعَهُ مِنْ دَنانيرَ ودَراهِمَ لَحْمًا أَوْ سَمَكًا وشَرابًا ، وعادَ إِلى بَيْتِهِ ، فَطَبَخَ اللَّحْمَ ، أَوْ شَوى السَّمَكَ ، ثُمَّ لا يَزالُ يَشْرَبُ ويَأْكُلُ ، حَتّى إِذا ثَمِلَ مِنَ الشَّرابِ ، ودَبَّ في جِسْمِهِ – رَفَعَ صَوْتَهُ بِالغِناءِ . وكانَ لا يُغَنّي في أَيِّ يَوْمٍ مِنَ الأَيّام غَيْرَ بَيْتٍ واحِدٍ مِنَ الشِّعْرِ ، يَفْخَرُ فيهِ بِنَفْسِهِ ، ويَلومُ قَوْمَهُ الَّذينَ ضَيَّعوهُ ، ولَمْ يَحْفَظوهُ ، ولَمْ يُدْرِكوا لَهُ قيمَةً ، ولَمْ يُقيموا لَهُ وَزْنًا . . يَرْفَعُ عَقيرَتَهُ بِقَوْلِ الشّاعِرِ :

أَضاعوني وأَيُّ فَتًى أَضاعوا

لِيَوْمِ كَريهَةٍ وسِدادِ ثَغْرِ

فَهُمْ لَمْ يَتْرُكوهُ ويَرْجوهُ لِيَوْمِ الحَرْبِ حَتّى يَدْفَعَ عَنْهُمُ المَكْروهَ ، ويَرُدَّ العُدْوانَ ، ولا لِحِمايَةِ الثُّغورِ والحُصونِ ، والحِفاظِ عَلَيْها ، فلا يَقْرَبُها الأَعْداءُ . . لَقَدْ فَرَّطوا فيهِ ، وتَغافَلوا عَنْ بَأْسِهِ وقُوَّتِهِ ، وبَسالَتِهِ وشَجاعَتِهِ !

وكانَ أَبو حَنيفَةَ إِلى جِوارِهِ يُصَلّي اللَّيْلَ كُلَّهُ ، قائِمًا قانِتًا لِرَبِّهِ ، وكانَ هَذا الغِناءُ الصّادِرُ عَنِ الإِسْكافِ يُبَدِّدُ السُّكونَ الرّائِعَ ، الَّذي تَحْلو فيهِ الصَّلاةُ ، ويَلَذُّ فيهِ التَّقَرُّبُ إِلى اللهِ ، وذَلِكَ يُؤْذيهِ أَشَدَّ الإِيذاءِ ، ويَغيظُهُ أَشَدَّ الغَيْظِ ، ويَتَضَرَّرُ مِنْهُ أَكْبَرَ الضَّرَرِ ، ولَكِنَّهُ لا يَمْلِكُ مِنَ الأَمْرِ شَيْئًا إِلا الدُّعاءَ لَهُ بِالهِدايَةِ والتَّوْبَةِ ، فَهُوَ جارٌ لَهُ حَقُّ الرِّعايَةِ ، وإِنْ كانَ هُوَ لا يَرْعى حُقوقَ الجارِ ، ولا يَحْسُبُ لَها حِسابًا .

وذاتَ لَيْلَةٍ انْقَطَعَ الغِناءُ ، وفَقَدَ أَبو حَنيفَةَ صَوْتَ

الإسْكافِ ، فَسَأَلَ عَنْهُ ، فَقيلَ لَهُ : « أَخَذَتْهُ الشُّرْطَةُ لِشَرابِهِ و ضَجيجِهِ . »

فَما إنْ أَدّى أَبو حَنيفَةَ صَلاةَ الفَجْرِ - حَتّى رَكِبَ بَغْلَتَهُ ، واتَّخَذَ طَريقَهُ إلى بَيْتِ أَميرِ الكوفَةِ ، ولَمّا اسْتَأْذَنَ عَلَيْهِ ، قالَ الأَميرُ لِحاجِبِهِ : « ائْذَنْ لَهُ ، ولا تَجْعَلْهُ يَنْزِلُ مِنْ فَوْقِ ظَهْرِ دابَّتِهِ ، حَتّى يَدوسَ البِساطَ . »

فَفَعَلَ الحاجِبُ ما أَمَرَهُ بِهِ أَميرُهُ .

ولَما بَلَغَ أَبو حَنيفَةَ مَجْلِسَ الأَميرِ وَسَّعَ الأَميرُ لَهُ في المَجْلِسِ ، ورَحَّبَ بِهِ تَرْحيبًا حارًّا ، وقالَ لَهُ : « لَوْ بَعَثْتَ في طَلَبي لَجِئْتُكَ يا أَبا حَنيفَةَ ، فالعِلْمُ ، لا يَسْعى وإنَّما يُسْعى إلَيْهِ . »

قالَ أَبو حَنيفَةَ : « شُكْرًا لَكَ أَيُّها الأَميرُ . »

قالَ الأَميرُ : « أَهُناكَ حاجَةٌ أَسْتَطيعُ القِيامَ بِها ؟ »

قالَ أَبو حَنيفَةَ : « نَعَمْ ، أَيُّها الأَميرُ . لي جارٌ

إسْكافٌ أَخَذَتْهُ الشُّرْطَةُ اللَّيْلَةَ ، وآمُلُ أَنْ يَأْمُرَ الأَميرُ بِتَخْلِيَتِهِ وإطْلاقِ سَراحِهِ . »

قالَ الأَميرُ : « نَعَمْ . » وأَمَرَ رَئيسَ الشُّرْطَةِ بإطْلاقِ سَراحِ الرَّجُلِ .

أَخْلَتِ الشُّرْطَةُ سَبيلَ الإسْكافِ ، ورَكِبَ أَبو حَنيفَةَ بَغْلَتَهُ في طَريقِهِ إلى بَيْتِهِ ، والإسْكافُ يَمْشي إلى جِوارِهِ . فَلَمّا بَلَغا البَيْتَ ، ونَزَلَ أَبو حَنيفَةَ الْتَفَتَ إلى الرَّجُلِ وقالَ لَهُ : « يا فَتًى ، هَلْ أَضَعْناكَ ؟ »

كادَ الرَّجُلُ الإسْكافُ يَذوبُ حَياءً وخَجَلاً ، وقالَ في تَلَعْثُمٍ واضْطِرابٍ :

« لا ، يا سَيِّدي ، بَلْ حَفِظْتَ ورَعَيْتَ . جَزاكَ اللهُ عَنْ حُرْمَةِ الجِوارِ كُلَّ خَيْرٍ . ولَكَ عَهْدُ اللهِ أَلا أَعودَ لِمِثْلِ ما كُنْتُ عَلَيْهِ أَبَدًا . »

و وَفّى الإسْكافُ بِما وَعَدَ .

المحتويات



الينابيع تتفجر من التراث العربي الأصيل، ومن السير الشعبية الغنيَّة، ومن الحكايات الشعبية العربيَّة؛ لتصوّر نماذج مضيئة من تراثنا، وتعرض قيمًا مشرقة في حياتنا: تمزج بين الجد، والفكاهة في لغة هادئة راقية: لا تعلو فتعوق القارئ وتصده، ولا تسفُّ فتهبط بذوقه ومستواه، وإنما تمتع وجدانه وقلبه، وتثري فكره وعقله.

الينابيع

ISBN 977-16-0417-1



مكتبة لبنان ناشرون

الشركة المصريّة العالميّة للنشر - لونجمان